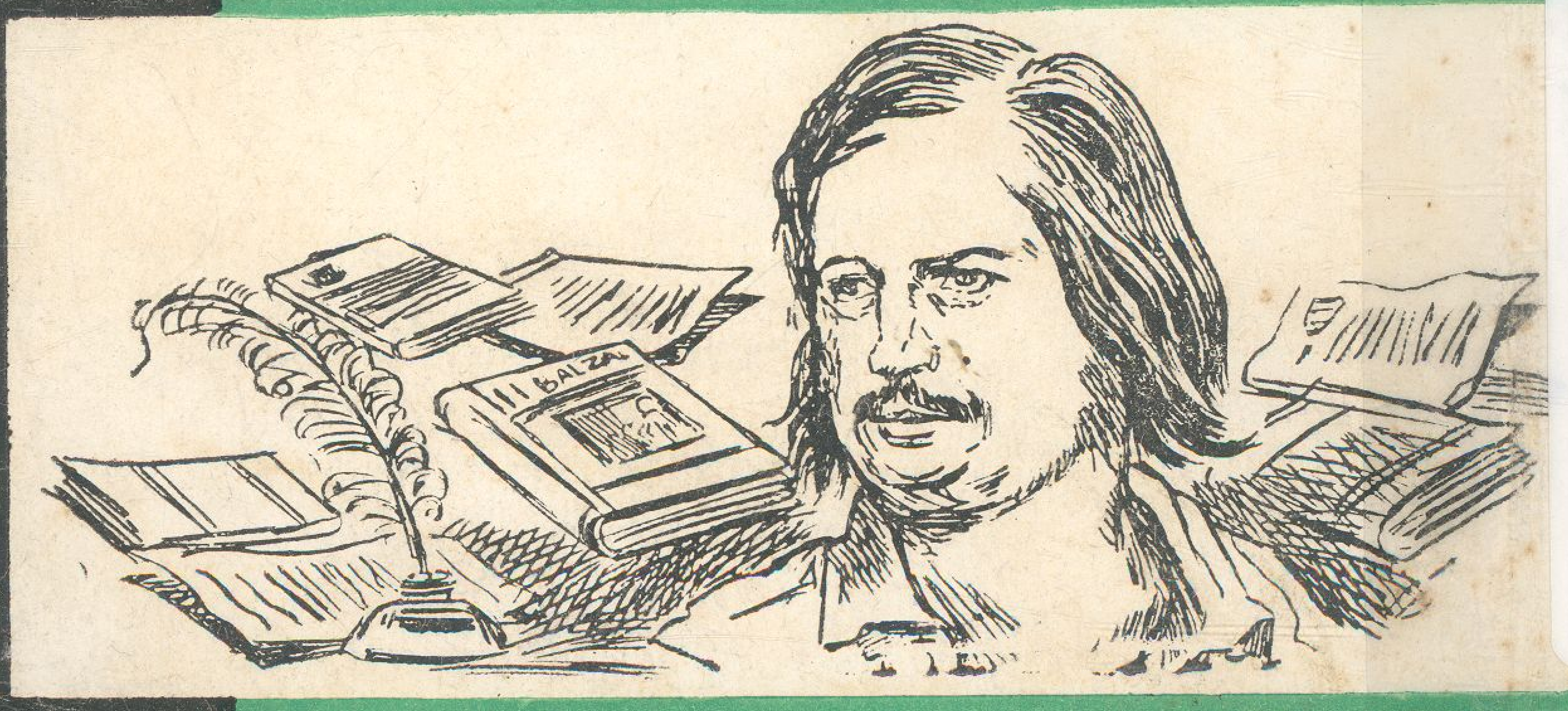
وزارة الثقافة
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

العدد ١٩٨

بلزاك
حياته وأدبه

تأليف : دكتور أنور لوقا



١٥ مايو ١٩٦٨
الثمن ٣ قروش

المكتبة الثقافية
(جامعة حرة)
١٩٨

بلزاك

حياته وأدبه

تأليف : دكتور أنور لوقا

دار
الكاتب العربي
للطباعة والنشر
بالقاهرة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

A mon cher maitre
Monsieur Bernard Guyon,
Cet ouvrage qu'il ne lira pas, mais qui se propose d'initier les lecteurs arabes au monde balzacien, tel que me l'a révélé son enseignement à l'Université du Caire, en hommage de fidèle gratitude.

Anouar Louca
Le Caire, avril 1965

الى أستاذى العزيز برنار جويون
هذا الكتاب الذى لن يقرأه ، ولكنه ينشد اطلاع قراء العربية على دنيا بلزاك كما جلاها لى تدريسه بجامعة القاهرة ، تحية عرفان خالص

القاهرة — أبريل ١٩٦٥
أنور لوقا

التلميذ الأديب

جفته أمه منذ طفولته . وكان أبوه ، ((برنار فرنسوا بلسا))، موظفا شيخا غريب الاطوار تستغرقه أبحاث عجيبة يريد بها اصلاح المجتمع والعودة الى الطبيعة ، واطالة عمر الانسان ، وحماية أعراض الفتيات . فانطوى الصبى – ((أونوريه)) – على نفسه ، واحس بالوحدة فى هذه الدنيا التى لم يكد ينزلها .

لم يجد من صديق يسكن اليه الا أخته ((لورا)) .

وحين بلغ فى سنة ١٨٠٧ عامه الثامن ، ألحقته أسرته بمدرسة ((فندوم)) الداخلية ، حيث أظهر من الكسل والتبلد ماأفسد رأى أساتذته فيه . وكم أنفق ساعات الدرس يرنو من نافذة ((الفصل)) الى أشجار الفناء أو زرقة السماء ، لايرده عن شروده زجر ولايردعه عقاب ! على أنه صحا بعد سنتين : فقد أخذ يتطلع الى طلبة الفرق العليا ويعجبه بلغاؤهم اذ يتناظرون أو يلقون الخطب الانشائية المنمقة . وراح يحاكيهم ، فلم يلبث حتى امتلأ قمطره بأوراق شعثاء، وتحدث زملاؤه الصغار عن روعة بيانه وبراعة قلمه . وانه ليكتب ذات يوم ((بحثا فى الارادة)) ، يضبطه معه بعض مدرسيه ، فيصادره ويبيعه – كما يؤكد تلميذنا الاديب – لاحد البقالين فى المدينة .

وبين جدران تلك المدرسة ، كان الصبى يلمس محاباة المعلمين الاتراب له بعينهم . وكان يعانى من املاقه وعجزه عن ابتياع

الادوات القشيبة ، لان أسرته كانت تحبس عنه النقود ، على حين كان رفاقه يبذرون الدراهم فى شراء الحلوى ويعيرونه بفقره . رأى «أونوريه» فى المدرسة اذن عالما صغيرا مشيدا على أسس من الفوارق الجائرة ، عالما يسوده سلطان المال ، عالما يحارب الفضل والامتياز، ويناصر السواد الاعظم من غلاظ النفوس والتافهين والخبثاء . وانها لصورة مصغرة لما سوف يلقاه فى المجتمع حين يخرج الى الحياة .

وكان فى الرابعة عشرة من عمره يوم هـرعت أمـه الى تلك المدرسة الداخلية ووجدته فى غيبوبة حمى عاتية ، فعادت به الى بيت الاسرة فى مدينة «تور» . كان سبب هذه الحمى افراط الفلام فى القراءة ، فقد التهم فى الخفاء جانبا كبيرا من مكتبة المدرسة ، كتبا دينية وتاريخية وفلسفية وعلمية . ولما أفاق وابل ، راح يحدث أهل البيت عن مجده المقبل ، وشهرته المحققة ، وصـيته الذى سيطبق الآفاق . فكانوا يضحكون منه ، وكان يضحك من ضحكهم .

وفى العام التالى استبقته الاسرة حرصا على صحته ، والحقته «بليسيه» تور . ثم أرسله أبوه الى باريس ، حيث عهد به الى صديق له يدعى «مسيو لبيتر» كان يدير مدرسة داخلية . وهناك لم تكن حال تلميذنا الاديب خيرا منها فى «فندوم» ، وان كان ممتازا دائما فى مادة «الانشاء» . فاذا أتم دراسته الثانوية سنة ١٨١٦ ، مضى الى السربون يسمع فى شغف وحماسة محاضرات « جيزو » و «فكتور كوزان» . وكان الاخير يلقى دروسا فى التصوف واتخذ من صور مختلفة على مر العصور ، فتتجاوب أصداء دروسه فى صـدر هذا الفتى الاديب الذى يقبل على الفلسفة ويعب كتبها عبا ، ويلتقط «مذكرات فلسفية» ويسجل «بحثا فى خلود النفس» .

ولكنه ماكان يستطيع أن يختلف الى السربون ولا الى المكتبات الا فى أوقات فراغه . فقد دفعه أبوه الى الالتحاق بكلية الحقوق ، ليتبوأ فى مستقبله كرسيا من كراسى القضاء ، ودفعه فى الوقت

نفسه الى مكتب الاستاذ «جيونيه مرفيل» ، أحد أصدقائه المحامين في باريس ليـــدربه ثم الى مكتب موثق العقود الاستاذ «باسى» ليتم تدريبه . وقضي الفتى في هـذا المكتب وذاك اعـواما ثلاثة ، لقبوه أثناءها «بالفيل» ، لانه كان بدينا ، بطيء الحـركة ، منصرفا عن العمل . بيد أنه هنا يخبر الحياة ويبلو الواقع ، ويرى بين يديه مشاهد الانسانية الرهيبة . وهل أروع من مكتب المحامى مسرحـا لهضومى الحقوق وهاضميها ، وكاسبى الصفقات وخاسريها ، والجارين وراء المال يلهثون ويتناحرون ، يختلسونه من القريب ويحتالون على ابتزازه من الغريب ، ويقلبون في سبيله الاوضاع ، وينسون بذكره أنفسهم وأنفس الناس ؟ .. لسوف يؤلف هذا «الكاتب» البدين من تلك المشاهد أصدق فصول «الكوميديا البشرية» .

وينظر الفتى الى نفسه ، ويلمس حاجته الى المال لكى ينطلق الى الحياة وينهل من ينابيع الشباب . ولكن والديه لايغدقان عليه، فيتهمهما بالبخل والتقتير ، ويبيت في نفسه العزم على أن يفتح معاقل الثراء والجـاه والمتعة . وتصطحبه الاسرة ـ لتسرى عنـه أحيانا ـ الى الحفلات والمراقص ، فلا تحفل به هناك سيدة ، ولايقبل عليه أحد ، ويقعده الخمول والارتباك ، واذا هو يفيض حقدا ونقمة ورغبة في السيطرة على النساء والرجال والكبار والصغار جميعا .. ولن تكون وسيلته الى التسلط واغتصـــاب المجـــد الا الـكتابة والأدب ..

ويحال الأب الشيخ الى المعاش سنة ١٨١٩ ، ويخسر ماأودع من ماله في بعض مشروعات التجارة والاقتصـــاد ، فيقرر أن تنزح العائلة الى الريف ، ويفاتح ابنه الفتى بانه قد رسم له اقصر سبيل الى وظيفة «موثق العقود» . ولكن الفتى يريد أن يكون شاعرا ..

ـ الا تعرف ، أيها الولد الشقى ، انك في عالم الادب ان لم تكن ملكا فستكون صعلوكا ؟

ـ لسوف أكون ملكا .

ويحتد الاب ، وتثور الام ، ولكن الولد لايتزحزح عن رأيه . وتنجلى العاصفة أخيرا عن هذا القرار :

ـ اذن فسنمهلك سنة تختبر فيها نفسك .

وترحــل الاسرة الى فيلباريزيس ، ويستقر الفتى الاديب فى باريس ، لكى يمتحن مواهبه وبيانه ، على شريطة ألا يظهر وألا يلقى الاصدقاء والاقرباء . وكيف ترضى أسرة طيبــة أن تعترف بأن لهـــا ولدا ((أديبا)) يرفض الاشتغال بتوثيق العقود ؟ سيتفقون جميعا على أن يذيعوا فى الأهــل والخلطاء ان ((أونوريه)) عليــل ســقيم ، وأنهم ارسلوه ليستشفى ويستجم فى بلدة ((ألبى)) ..

ولم تكن ((ألبى)) سوى غرفة صغيرة فوق سطح منزل فقير بشارع ((ليد يجبير)) ، قرب مكتبة ((الارسنال)) . غرفة عارية الا من منضـدة عرجاء ، وكرسيين من خشب ، وسرير غير وثير ، وستارتين ذابلتين تكرمت الأم بأن تخلعهما على النافذتين ، وصوان صغير للملابس أنفق الفتى الاديب يومــا كاملا يبطنه بالورق ويثبت عليه قفلا ، ثم زجاجة فارغة يغرس فى فوهتها الشمعة ويوقدها ويسهر الليل ..

وقد كتب بلزاك فى هذا الطور من حياته الى أخته ((لور))رسائل طريفة تفيض مرحا ومزاجا ، فهو يسخر فيها من كل شيء ، من بؤسه وفقره ، ومن عمله وأمله :

((ليحى البقالون ! فانهم يبيعون طول النهار ، ويحصون فى الليل ربحهم .. ويسـعدون . أجل ، ولكنهم ينفقون وقتهم بين الجبن والصابون . ليحى بالأحرى الادباء ! فانهم جميعا مملقون من المال وأغنياء بكبريائهم فقط . صه ! لندع هؤلاء وهؤلاء ، وليحى الجميع !))

ويتردد الفتى الاديب فى النهار على مكتبة «الارسنال» ، ثم يتريض طويلا فى «حديقة النباتات» ، أو يرقى الى مقابر «بير لاشيز» من حيث يلقى بصره فيشهد باريس كلها ، ومن حيث سينظر بطله «راستنياك» ـ بعد أن يدفن «الاب جوريو» ـ الى المدينة الخلابة الجبارة ويتحداها . فاذا شفى نفسه من الطواف بالقبور واستلهام المعانى والعبر ، خرج الى الحى يقضى حاجاته ، ويختلط بالعامة فى السوق ، يتأملهم فى مساوماتهم ومشاجراتهم ، ويضطرب بين العمال ساعة انصرافهم ، فيشتم فى كلماتهم ومظاهرهم من المآسى المغمورة مالاتحسه العاصمة السادرة ومالايلتفت اليه احد . ويقول بلزاك ان ملاحظة الناس كانت «تسليتى» الفريدة ، وهذه التسلية بعينها هى التى ستمده فيما بعد بكثير من مشاهد « الكوميديا البشرية» .

ولايكاد يجن الليل حتى يطهو طعامه ويصب قهوته ، ويربض أمام الورق المبسوط على منضدته ويبيت يقدح ذهنه ويجرى قلمه ، ناهضا كلما أرهقته مغالبة الافكار واللغة فيعتمد بجبهته على زجاج النافذة ، من حيث يعشو الى أضواء الشارع المختلجة فى الظلام ، ويسترسل فى أحلامه ببعد الصيت ومتعة الحب ـ وسكون الليل الساجى يصور له من الامانى الشاردة حقائق قريبة حية منتعشة نابضة ، ويوحى اليه بانه قادر على أن يخضع الدنيا لارادته ..

انه هنا ليثبت مقدرته وفنه ، انه يريد أن ينتج ، ولكنه لايكاد يدرى ماذا يريد أن ينتج ! ففى رسائله الاولى حيرة وتردد ونظرات زائغة . هو ذا يفكر أول الامر فى كتابة القصة ، ثم يعدل عن القصة الى مشروع مسرحية عن «سيلا» تكون من نوع المأساة العنيفة ، غير أنه يوطد العزم على تدبيج مسرحية شعرية عنوانها «كرومويل» .

وقد علمته «كرومويل» مالم يكن يعلم : علمته أن نظم الشعر أمر عسير شاق ، ونبهته الى بعض قواعد الكتابة المسرحية ، فهو

يحدث أخته عن ((خطة)) روايته قائلا : ((ان الخطة رائعة ، ومازالت هناك أخطاء ، وان كانت هينة فى الواقع . ولكن العرض جميل ، والقلق يتزايد من مشهد الى مشهد حتى تقع الكارثة)) . أى أنه فطن الى مدار الرواية ((التصاعدى)) الذى نجده عند الكاتب المسرحى ((كورنى)) فى القرن السابع عشر . ولقد اختار بلزاك لهذه المسرحيه موضوعا رائعا ، خليقا بأن يهز أعصاب النظارة بالتأثر ويهز أكفهم بالتصفيق : ملك سجين فى عقر قصره يحوم حوله شبح الموت ، ومتآمرون مترددون يدفعهم الى الجريمة رجل صارم طامع عنيد ، وملكة متأججة العاطفة يبلبلها الخطر الذى يهدد زوجها وتحاول بكل قواها أن تنقذه . وحرص المؤلف الفتى على أن يؤجل دخول الملك الى الفصل الثانى ، كما كان يفعل موليير وكورنى اذ يشغلان النظارة بحديث البطل ولا يخرجانه اليهم الا بعد تشويق طويل ، وحرص كذلك على أن يجعل المشهد الاخير من كل فصل مفاجأة تثير استطلاع الجمهور الى الفصل الذى يليه .. على أن هذا كله كان أشبه بتمرين مدرسى لم يكن ليتفق مع استعداد الفتى الاديب فى ذلك الوقت . فقد كان رأسه يموج قبل كل شيء بأفكار وفلسفة يريد أن يعرضها . ولكنه لم يكن يعرف نفسه اذ ذاك .

عاد أونوريه بعد شهور تسعة الى فيلباريزيس ، حاملا معه مسرحيته ، معتدا بها ، متوقعا أن يفوز بالتقدير والاعجاب والثناء. وسرعان ماتشكلت فى البيت محكمة أدبية تضم جميع أفراد العائلة وبعض الاصدقاء . وأخذ الفتى الاديب فى انشاد شعره الرصين ، فاذا الوجوه جامدة كأنها قدت من الثلج . ثم يتبادل المستمعون نظرات الحسرة والاسى . ويجرؤ أحدهم على اعلان الرأى العام فى شيء من العنف ، فيحتج المؤلف بشدة ، ويطلب استئناف الحكم لدى هيئة مختصة . وهنا يقترح المهندس ((سورفيل)) خطيب ((لور)) أن يعرض العمل على أستاذه الاديب ((أندريو)) . وبعد أن يقرأ

أندرير مخطوط المسرحية ، يصدر الحكم التالى : ((على هذا الاديب أن يشتغل بأى شىء ماعدا الادب)) .

ولا علينا اذا أهملنا تلك المسرحية الفاشلة ، فلسوف يقول عنها بلزاك فيما بعد انها ((بلاهة طفل حقا)) .

ومادام قد أخفق فى الكتابة للمسرح ، فليكتب قصة لجمهور القراء ، قصة فلسفية عنوانها ((ستينى أو الاخطاء الفلسفية)) ، بطلها فتى يدعى ((أيوب أو يعقوب ديل ربيس)) يعود ، بعد عدة سنوات انفقها فى باريس الى مسقط رأسه ((تور)) حيث يلقى أخته فى الرضاعة ((ستينى)) فيحبها ويهيم بها ، وتحبه وتهيم به ، ولكنها مخطوبة ((ليلانكسى)) رجل لاتحبه قط وانما تزوجها به أمها طمعا فى ثرائه ، ولايحبها قط وانما يتزوجها طمعا فى ثرائها . وبعد مقاومة عقيمة ، يستسلم الفتى لعاطفته ، فيقنع الزوجة بأن أوضاع المجتمع فاسدة وأن الدين خرافة والخطيئة وهم والله غير موجود والروح غير خالدة ، ويتفقان على قضاء اللذة ثم الانتحار ، غير أن ستينى تأبى فى اللحظة الاخيرة ، وتبلغ أخبارها زوجها فيدعو غريمه الى المبارزة .. وهنا ينتهى المخطوط ، الذى لم يطبع ولم يعرفه جمهور القراء الا سنة ١٩٣٦ !

وحسبنا أن ننظر فى هذه القصة الى اطارها الفنى المطاط ، فقد صاغها بلزاك فى مجموعة رسائل يتكاتبها الاشخاص ، ويعرضون فيها لمناقشة كل شىء ، كما فعل ((روسو)) فى قصته الشهيرة ((هلويز الجديدة)) ، ومن ناحية أخرى الى أنها أول قصة بمعنى الكلمة ينشئها بلزاك ، وأنه لم ينشد فيها القصة لذاتها وانما اتخذها وسيلة لعرض الآراء الاجتماعية والمذاهب الفلسفية ــ شأنه فى ((الكوميديا البشرية)) فيما بعد .

ذلك كان فى حياة بلزاك طور التلميذ الاديب الذى يريد أن

يكتب وينبه ويغتصب المجد ، فلا يرقى مخطوطه الى المطبعة ، ويظل نكرة مغمورا ، لانه لم ينضج ولم يتدرب ولم يستطع أن ينتج نجيبا .

وها هو ذا يلمس فى سنة ١٨٢١ استعصاء النبوغ عليه ، واشتداد تهديد أسرته له بالوظيفة ، فينضم الى زمرة من صغار الادباء الصحفين ، ويسترسل ى كتابة مجموعة من الروايات الغثة ينسجها على منوال القصص الرائجة فى ذلك العصر ، وينعتها بأنها «مشروعات أدب تجارى» .

البحث عن فن

كان الفرنسيون يقرءون نحو سنة ۱۸۲۰ - أى حين بدأ بلزاك انتاجه الادبى - ثلاثة ألوان من القصص : القصة الغرامية ، والقصة السوداء ، والقصة المرحة .

أما القصة الغرامية ، فكانت تتخذ أبطالها دائما من أفراد الطبقة الاجتماعية الممتازة ، أولئك الذين يحملون الالقاب ، ويرثون عن آبائهم الثروة والصيت ، ولايكادون ينتظمون فى وظيفة أو عمل ، وانما ينفقون أوقاتهم الخالية فى الاصغاء لحديث القلب واتباع العاطفة ، ويقفون حياتهم على حب سيدات رقيقات جميلات ، من نفس الطبقة الاجتماعية الممتازة . وتدور حوادث القصة الغرامية فى «صالون» من صالونات باريس أو قصر من قصور الاشراف فى الريف . ولم يكن يخفف من وطأة ذلك الجو العام ، المتشابه ، الجارى على وتيرة واحدة فى جميع تلك القصص الا أصحاب الادوار الثانوية ، هذا الحسود أو هذا العاذل أو هذا الخائن ، الذى ينتمى فى أغلب الاحيان الى الطبقة الاجتماعية الوسطى ، وفيه يضع الكاتب من الرذائل قدر مايضع فى نفوس الابطال من فضائل وسجايا ، فان مثل هذا الشخص أقرب الى دنيا الاحياء وأدنى الى الواقع حيث يتميز فرد من فرد بخلق أصيل . وكان اثقل مافى هذه القصص خروجها على المألوف وافراطها فى المبالغة بنزعتها الاخلاقية التى تدفعها أحيانا كثيرة الى تجسيم الفضيلة فى مقام تصوير فتاة ،

والداب على وعظ القارئات الشابات بأن سلامتهن فى طاعة امهاتهن والحذر من الغواية ، وأحيانا أخرى الى وصف الصراع الدائر فى فؤاد زوجة صغيرة يأبى القدر الا أن يضع فى سبيلها عاشقها الولهان فتقاوم عاطفتها حتى تموت شهيدة الاخـــلاق الفاضلة . ومادامت رسالة القصة متعة ودرسا معا ، فقد كان الكاتب الناجح هو الذى يعرف كيف يستغل المشاعر وكيف يستدر الدموع ، بأن يقود بطله أو بطلته من يأس الى يأس ، ويغريه أو يغريها بالانتحار ، ويعرض على قرائه مايتخلل ذلك من وداع خطابى بليغ يلقيه الرجل ، أو ولولة وجدانية مؤثرة تلقيها المرأة ، فان المؤلف ليستسلم لتيــار من الخيال يلهمه الكوارث تلو الكوارث ، فيوقف أشخاصه أعجب المواقف ، ويوشى بالتكلف أحاديثهم وحركاتهم ، ويشتط فى الابتعاد بنا عن الحقيقة .

وأما «القصة السوداء» ، فكانت تعتمد على الحوادث العجيبة الخارقة التى تثير فى نفس القارىء ولعا بالارهاب والقلق ، فمن شبح يظهر ويختفى ليعلل واقعة أو يمنع وقوعها ، الى شرذمة من اللصوص الاشرار تعيث فى الارض فسادا ، الى عصــابة من قطـاع الطرق الابطال الذين يتولون حماية الضعيف ونصفة المظلوم وتاديب الجائر ، وهنا وهناك تنتشر السراديب والمتاهات والغرف الحالكة الظلام والاصوات الغامضة الرهيبة . وقد يكون بطل القصة مجرما لئيما ينعم فى الشر ، ويلذ له الاثم ، ولا يردعه عقاب ، ويستمد الشر والتجبر من نفسه الخبيثة ، وقد يكون شخصا من بنى آدم تحالف معه الجن أو عاهـده الشيطان كما تخيل « جوته » فى قصة «فاوست» الشهيرة . واذا استثنينا هذا الضرب الاخير ، رأينـا أن القصص السود تلتقى جميعا وتتشابه فى عدة مواقف عامـة : خائن اقترف فى الماضى جـريمة بعينها لكى يثرى أو يبلغ منصــبا رفيعـا ، ولايـزال يحيط بالشراك ضحيته ، بطلة القصة ـ وهى فتاة فاضلة كصاحبتها من بطلات القصص الغرامية وان كانت لاتجمل

العاطفة محور حياتها ــ حتى تنكشف الجريمة شيئا فشيئا بفضل شخص قوى ينهض للدفاع عن البطلة المستضعفة وينصرها على المعتدى البغيض . وقد يسند الكاتب مهمة حماية الفتاة لحبيبها نفسه ، وقد يسندها لراهب أو قسيس ، أو شخصية كريم يتنكر فى صورة شبح ، أو يسندها ــ ليوفر على نفسه مشقة التفكير المنطقى السليم ــ الى كائن غير مادى هو روح القتيل التى تتعقب القاتل ولاتهدأ حتى تثار منه . ولذلك تغلب على القصة السوداء ((وحدة المكان)) الذى تجرى فيه الحوادث ، فان الاشباح لاتأوى الى كل بقعة من الارض ، وانما تستوطن قصرا عتيقا ذا أبراج وأسراب وغرف مخصصة للتعذيب مليئة بأدوات رهيبة ... هناك ملاحم الهول والرعب التى تروع جمهور القراء .

وأما ((القصة المرحة)) فكانت تعنى قبل كل شيء بالاضحاك والسخرية ، فتتخذ أشخاصها من الطبقة الاجتماعية الوسطى ، تعرض عاداتهم وأحاديثهم ، وتدفعهم الى الاضطراب والاختلاط والاحتكاك ، وتترك للمصادفة وحدها أن تدير دفة الحوادث ،وتقدم للقارىء من هذا كله جوا فكاهيا هازلا ، متلاحق المآزق ، متدفق النكات . لولا اسراف هذه القصص فى الهزل والعبث والمجون لكانت ــ بما يتخللها من ميل الى الملاحظة وتسجيل الحقيقة ــ خطوة موفقة فى سبيل القصة الاجتماعية .

وكان لهذه الروايات على اختلاف ألوانها طابع خاص من ناحية الانشاء . فهى خالية من كل تمهيد ، لاتبدأ بتعريف القارىء بأشخاص القصة ومكان بعضهم من بعض ، وانما تجرى بينهم حوارا لايكاد القارىء يفهمه أو تحركهم حركات لايكاد القارىء يحسن تعليلها ، وتتخذ من غموض الماضي وسيلة للتشويق والامتاع . ثم تتوالى الفصول ، وتقع فى كل فصل أحداث جديدة ، ويقبل عليك أشخاص جدد ، ولكنك لاتستطيع أن تقف على رابطة واضحة محكمة تربط

فصلا بفصل ، حتى اذا اقتربت نهاية القصة علمت أن كل فصل من الفصول التى قرأتها لم يكن الا ظاهرة من الظواهر المترتبة على الماضى الغامض الذى ينجلى لك فى آخر الامر .

★★★

عرف بلزاك هذه الالوان من القصص الفرنسى ، وألف أبطالها، واعتاد مواقفها ومفاجآتها ثم عرف القصة التاريخية التى أبدعها الكاتب الاسكتلندى «ولترسكوت» ، وأعجب بها ، فكانت عنصرا قويا من العناصر المؤثرة فى اسلوبه .

أراد ولترسكوت أن يصور تاريخ بلاده وحضارتها الماضية وحياة أسلافه كما عاشوها ، أراد أن يبعث المجتمع الاسكتلندى القديم فى قصصه ، فجدد بذلك مادة القصة وموضوع الرواية ، وجدد صياغة القصة وعمارة الرواية بما يقتضيه هذا الغرض الجديد . ومن هنا كانت الصفحات الاولى فى روايات هذا القصاص المؤرخ معرضا للمكان والاشخاص والعادات ، أحاديث طويلة يتجاذب أطرافها قوم يصورون لنا فى لفاتهم الخاصة مشاغلهم وأعمالهم وصفاتهم وأفكارهم ، ويخبروننا بأمر ماكان من الاحداث وينبئوننا بما يتوقعون أن يكون ، فنعيش معهم فى هذا الجو الذى سيخيم على القصة كلها . وبعد هذا التقديم المستأنى ، تقع الاحداث ، وتدور الدوائر ، وتتصل الكوارث ، دون أن يضطر الكاتب الى التوقف لشرحها وتعليلها ، فليست بالقارىء الذى اجتاز الصفحات الاولى حاجة الى شرح وتعليل . ولئن صاغ «ولتر سكوت» أبطاله فى قالب أبطال القصة السوداء أحيانا كثيرة ، فقد اعتنى بالشخصيات الثانوية فى القصة ، وكان يروق له ان يتوقف بهم ويبرز وجوه الطرافة فيهم .

وقد تعلم بلزاك من «ولتر سكوت» كيف يمهد للقصة ، كيف

يصف المكان والزى والخلق ، كيف يبعث البيئة ويخلق الجو ، وكيف يدير الحوار ، ثم كيف يصب الاحداث بعد ذلك صبا ، غير مهمل أصحاب الادوار الصغيرة فى الرواية . وكما صور «ولترسكوت» فى سلسلة من الروايات مجتمعا بأسره ، هو المجتمع الاسكتلندى فى القرون الوسطى ، سوف يصـــور بلزاك فى سلسلة من الروايات مجتمعا بأسره ، هو المجتمع الفرنسى الذى عاصره .

***

وها هو ذا بلزاك ، يعاونه زميلان من صغار الادباء هما لبواتفان ليجريفيل ، واتيين أراجو . (Le Poitevin de l'Egreville, Etienne Arago)
يشرع فى كتابة الروايات لسواد القراء ، بأسماء مســتعارة تفنن ثلاثتهم فى اشتقاقها من أسمائهم الحقيقية .

صدرت فى بدء سنة ١٨٢٢ « الوارثة دى بيراج » L'Héritière de Birague أولى هذه الروايات ، وقد اشترك الثـــلاثة فى تدبيجها . والقصة تجرى فى فرنسا فى القرن السابع عشر . وتتلخص فى محاولة رجل ايطالى مغامر أن يتزوج «ألويز دى بيراج» ليســتولى على ثروتها الضخمة ، فقد وقف على سر يخفيه والداها ، ويتيح له أن يودى بها اذا رفضاه زوجا للفتاة . ويقوم «الكونت دى مورفان» وزوجته بدور «الشرير» التقليدى الذى يتستر على جريمته ويؤنبه ضميره ويخشى الفضيحة ، حتى اذا تقدم ذلك الصعلوك المغـــامر طالبا يد الوارثة نظير صمته ، تدخل شيخ غامض الاطـوار معتزل فى قصر عامر بالسراديب المسحورة ، فانقذ الفتاة لتتزوج حبيبها فى آخر الأمر . اذن فهى قصة « سوداء » كاملة العناصر : سر دفين ، وشرير لئيم ، وزواج بالاكراه ، ونصير قوى ، وقصر مسحور ... غير أنها تزيد على عناصر القصص السود هذين الشخصين المضحكين ، «الكابتن شانكلو » ، حما الكونت ، وصديقه « فييروش » وهمـا ضـــابطان

متقاعدان ، لا مكان لهما فى صلب القصة على الاطلاق ، ولكنهما يتدخلان فى كل شيء ، ويضفيان على المواقف الحرجة جوا من الهزل والمرح ، ولا يشك الاستاذ بارديش ــ الذى درس بالتفصيل تطور فن القصة فى أدب بلزاك ــ فى أنها محاكاة مباشرة لشخصية ضابط فى احدى قصص « ولتر سكوت » التى ترجمت الى الفرنسية سنة ١٨١٩ .

فى هذه القصة تدرب بلزاك على صياغة الحوار واختلاق الحوادث . وواضح أنه غير جاد فيما يروى ، وأنه يبالغ ويفرط فى تقليد النماذج التى يجدها أمامه ، لا يتحرج من نسبة أغرب المفاجآت للمصادفة وحدها ، ولا يتورع عن ايراد المعجزات تترى. لقد تطور موقف بلزاك من الكتاب الذى يكتبه . ففى قصة «ستينى» كان جادا يحاسب نفسه ، ويأبى على خياله الجموح ، ويشعر بالمسئولية ازاء ما ينتجه ، ويحرص على الاجادة والاتقان ، أما فى « الوارثة دى بيراج » فانه لا يعبأ بمنطق ، ولا يقطب جبينه ، وانما يطلق لخياله العنان ويعبث بكل ما يخلقه ويسرف فى هذا العبث .. ليوقف الكاتب بعد ذلك هذا المرح وليكف عن هذا الهزل ، اذن فسيشعر اذ ذاك أنه خليق بأن يروى كل شيء مهما يكن امره ، وأن قدرته على العرض والسرد والتقديم والانشاء قد اكتسبت مرانة وقوة وخصبا . وهذا ما يحق لنا أن نتوقعه من كاتبنا فى أطواره المقبلة .

بعد أشهر ثلاثة أصدر بلزاك بالاشتراك مع دليبجرفيل ، احد زميليه ، رواية « جان لويس أو اللقيطة » ، رواية فكاهية تنتسب الى « القصة المرحة » وان كانت تستعير مدارها من حوادث «القصة السوداء » . ويأسف الأستاذ جويون لأن بلزاك كان حديث السن قليل التجربة فج الفن حين أخرج هذه القصة ، فقد كانت جديرة بقلمه حين ينضج فيما بعد ويؤرخ للمجتمع الفرنسى . ذلك ان

مغامرة ((جان لويس)) هى قصة وصول الشعب الى دست الحكم وتقلده السلطان أثناء الثورة الفرنسية . أحب هذا الفتى - وهو ابن تاجر غنى من تجار الفحم - لقيطة تدعى ((فالنشيت)) ، وما كاد يتأهب للاقتران بها - بعد أن اعترضته سلسلة من العقبات اجتازها حتى يتضح أن العروس هى ابنة الدوق ((بارتناى)) ، ومحال أن يتزوج فتى من أبناء الشعب سليلة بيت من بيوت الأشراف . وهنا تنشب الثورة الكبرى فتقلب الاوضاع الاجتماعية - او بالأحرى تصححها . ولكن الدوق يعود الى فرنسا فقيرا مدينا ، مصرا على رفض جان لويس - الذى يبدى استعداده لأن يسدد له ديونه - مصرا على أن يزف أبنته لابن أخته العربيد ((الماركيز دى فاندوى)). ولم يكن بد دون زواج الحبيبين من أن يتدخل فى الأمر امريكى يدعى ((مايكو)) كان قد ورد للدوق فى الماضى كمية من السم وأقبل يهدده بأن يفشى كل خافية اذا هو أبى ذلك الزواج .

فى هذه الرواية تحرر بلزاك من قيود المنطق ، ومضى يخلق الأحداث والمغامرات والمواقف المضحكة ، دون ترتيب ، ودون مبرر اللهم الا أن تثير الضحك . لقد تدرب اذ أجرى قلمه وأطلق خياله فى انشاء هاتين القصتين خير تدريب يحتاج اليه الفنان فى أول طريقه . هو يعرف الآن أن ينسج الموضوع ، يعرف أن يكدس الحوادث ، وأن يتآمر مع الأبطال ، يدعوهم متى شاء فيحضرون ويقصيهم متى شاء فيتوارون . انه لم يكتسب بعد أسلوبا بعينه فى معالجة الصعاب الفنية التى تقوم أمامه بين لحظة واخرى ، لم يتخذ بعد مذهبا بعينه فى صياغة القصة ، ولكنه اكتسب حرية مطلقة فى الاخراج وخفة وبراعة فى الحركة .

★★★

وفى النصف الثانى من سنة ١٨٢٢ يصدر بلزاك ، وحده ،

ثلاث روايات جديدة : « كلوتيلد دى لوزنيان أو اليهودى الوسيم» فى شهر يوليه ، موقعة باسمه المستعار « Lord R'Hoone » ثم « المعمر مائة سنة » و « قسيس الأردين » « فى شهر نوفمبر ، موقعتين باسمه المستعار الجديد « Horace de Saint-Aubin »

أما قصة « اليهودى الوسيم » « Clotilde de Lusignan » فرواية تاريخية تنقلنا الى القرن الخامس عشر ، حيث نشهد جان الثانى، ملك قبرص الذى نفاه البنادقة ، يلجأ وابنته كلوتيلد الى قصر لوزنيان فى مقاطعة البروفانس بجنوبى فرنسا . والقصة حافلة بضربين من المغامرات ، سلسلة من المغامرات الحربية وسلسلة من المغامرات الغرامية : فهناك شقى من قطاع الطرق يحاول اختطاف الملك اللاجىء لكى يسلمه للبنادقة ، ويشد أزره فى ذلك سياسى ايطالى من أصحاب المبادىء الماكيافيلية ، على حين يتولى الفارس الشجاع الكونت جاستون أمير البروفانس الدفاع عن الملك ، ويستبسل : حتى ينقذه ، فينال يد ابنته كلوتيد . ولكن الفتاة تحب يهوديا وسيما يدعى « نيفتالى » وتقسم له لتنتحرن ما دام أبوها قد وعد الكونت جاستون بها ، وأخيرا تقع المعجزه ويتضح أن اليهودى نيفتالى لم يكن الا الكونت جاستون هو بعينه ! ..

وقد نسج بلزاك هذه القصة على منوال قصة ولترسكوت الشهيرة «ايفانهو» Ivanhoe غير أنه مازال قاصرا عن استيعاب فن ذلك الكاتب العظيم الذى يعجبه . فانه لم يفلح فى تصوير جو تاريخى أصيل ، ولم يفلح فى أن يجسم فى أشخاص القصة طبقات المجتمع الذى اختاره اطارا ، ولم يتخلص من تخيل المعجزة أساسا يشيد عليه الرواية . ومع ذلك فينبغى أن نسجل لبلزاك شيئا من التقدم بلغه في خلق الشخصيات ، فما من شك في أن أشخاص هذه القصة أرقى من أصحابهم فى قصة « الوارثة » . هناك كانوا يتبادلون الالفاظ الجوفاء لاضحاكنا ، ولكن الفكاهة هنا تنبع من فكرة ثابتة خاصة

يعتنقها الشخص ولا يحيد عنها فى أى موقف وقف . لم يستطع بلزاك حتى ذلك الطور أن يستشف النفوس ، وأن يجلو الخلائق ، ولكنه استطاع أن يرسم ظلالا لكائنات حية .

وتأثر بلزاك بكاتب انجليزى آخر يدعى ((ماتوران)) حين قرأ فى سنة ١٨٢١ الترجمه الفرنسية لقصته العجيبة ((ملموث أو الرجل الهائم)) (Melmoth) وها هو ينكب على تقليده فى قصة ((المعمر مائة سنة)) ، وفيها يستعير فصولا بآسرها من نموذجه الانجليزى دون تصرف ملحوظ . وهل نستطيع أن نميز ((الشيخ بيرنجلد)) من ((ملموث)) ؟ كلاهما ذو قدرة خارقة للطبيعة ، مصدرها ميثاق أبرمه مع الشيطان ، وكلاهما حظى بأن يعمر على الارض أطول مما يعيش سائر البشر ، وذلك مقابل شرط بعينه ، فعلى ملموث أن يجد فى نهاية المائة عام نفسا تقبل أن تهب ذاتها للشيطان حتى ينجو هو من الهلاك ، وعلى الشيخ بيرنجلد أن يختطف فتاة وينحرها فتسرى حياتها فى عروقه ويتجدد شبابه . وعلى الرغم من هذا الفارق، تنقضى حياة الشيخين جميعا فى البحث عن الضحية ، ولا يكفان عن اختراق الجدران ، واغاثة الملهوفين ، والوثوب من قارة الى قارة . .

ولم يستمد بلزاك من ((ملموث)) شخصية البطل وأحداث الرواية فحسب ، بل استمد منها أيضا أسلوب السرد والانشاء ، هذا الذى لا يرتب الفصول ترتيبا زمنيا تاريخيا ، ولا يصل بينها برباط وثيق ، وانما يدع لكل شخص يفد علينا أن يروى لنا مغامراته السالفة رواية مستقلة ، دون مراعاة لحديث من سبقه أو حديث من يتلوه ، وذلك مايعرف ((بالقصة ذات الادراج « Roman à tiroirs » ولكن بلزاك يعود فى آخر الرواية الى تقاليد ((القصة السوداء)) وموضوعها الاثير ، اذ يختطف الشيخ فتاة تدعى ((ماريانين)) ، فيبحث عنها خطيبها ((توليوس)) حتى ينقذها فى الوقت المناسب من الحديد والنار والعذاب الرهيب الذى أسلمت اليه فى السراديب الخفية والغرف المظلمة . اذن فقد تعلم

بلزاك من ملموث دروسا كثيرة ، ولكنه لم يزل ميالا الى استغلال الاشباح وجرائم السفاحين والاشقياء ، تلك التى استخدمها من قبل فى ((الوارثة)) وفى ((جان لويس)) .

وأما ((قسيس الاردين Le Vicaire des Ardennes فقصة فتى يجهل أبويه ، أحب فتاة ظنها أخته ، ففر من حبها الى الكنيسة ، ولكنه لا يلبث حتى يلقى أمه ويعرف أن الفتاة التى أحبها ليست شقيقته ، فيترك خدمة الدين ليستأنف غرامه القديم . وهنا تبدأ سلسلة من الاحداث العنيفة تبتعد بنا عن جو القصة العاطفية المألوف . ذلك ان للفتى غريما هو زعيم عصابة من القراصنة يدعى ((آرجو)) . وبعد مغامرات الاختطاف والتعقب يصفو الجو للحبيبين بيد أن الزوجة تكشف أخيرا أن زوجها قسيس حرام عليه الزواج ، فيقضى عليها الأسى ، فى اللحظة التى تعفيه فيها الكنيسة من الخدمة .

وهذه القصة لاتكاد تفضل ((ستينى)) ، أولى قصص بلزاك ، الا بمرونة السرد والحوار . ولا يكاد اثر ((ولتر سكوت)) يضيف اليها قيمة جديدة ، فقد سئمنا تلك الشخصيات الثانوية التى ينقلها بلزاك عن الكاتب الاسكتلندى ، من قسيس لا ينطق الا بالحكم والأمثال فى كل مناسبة ، أو خادمة ثرثارة لا تعرف أن تكتم سرا . ولكن الجديد فى هذه القصة هو أثرالشاعر الانجليزى ((بايرون)) الذى استمد منه بلزاك شخصية ((أرجو)) هذا الجبار العنيف الثائر على المجتمع ، هذا الذى يجول ويصول وينعم ويثرى ولا يلحقه من الناس أذى لانه متنكر يكتم عن الناس أمره . وما من شك فى أن صورة ((أرجو)) هى الصورة الاولى التى يخطها بلزاك لبطله الشهير فيما بعد ((فوتران)) المجرم ، الثائر على المجتمع الفاسد ، الشيطان الذى يحتاج الى ملك بجواره الا أن شخصية ((أرجو)) هنا سطحية كثيرة الاضطراب ، لايحركها ذلك المبدأ العميق .ولعلها أقرب الى شخصية ((الشرير)) المعروفة فى ((القصص السود)) . وما موقف الفتاة ((ميلانى)) بين القرصان أرجو والقسيس جوزيف الا موقف ماريانين بين الشيخ

بيرنجلد وابن عمها ((بوليوس أو موقف فانشيت بين جان لويس والماركيز دى فاندوى .

وهكذا تتشابه قصص أديبنا الناشىء جميعا : يريد أن يقلد ((ولتر سكوت)) ولكنه ينجذب نحو القصر العتيق وقاطع الطريق ونصير المستضعف ، ويريد أن يقلد ((ماتوران)) ولكنه ينتهى الى السراديب الخفية ، والبطلة العزلاء والمجير الكريم ، ويريد أن يقلد القصص الغرامية وأبطال ((بايرون)) ولكنه ينسي ما يريد أن يقلد القصص الغرامية وأبطال ((بايرون)) ولكنه ينسى ما يريد بين حوادث الاختطاف ، ومغامرات النضال ، ومحاولات الحبيب الضعيف الفوز بفتاة أحلامه .

والحق أن بلزاك كان يقصد فى كل مرة أن يكتب قصة غرامية، قصة عاشقين ، ولكن الناشرين كانوا لا يقبلون فى تلك الأيام الا رواية طويلة تضمها أربعة مجلدات ، وتقسم فى اغلب الأحيان الى ثلاثين فصلا . لم يكن له بد اذن من أن يضيف الى القصة الأصيلة سلسلة من الحوادث الخارجية حتى تتم فصولها الثلاثون ، فيحفل الناشر بنشرها ، ويحفل القارىء بقراءتها .

★★★

وبينما كان بلزاك ينتج انتاجه هذا التجـارى الغث كان يواصل هواية المطالعة والتأمل . وكان يميل بوجه خاص الى الشـــعر ، ويحاكى بالنظم أو النثر أندريه شنيبيه ولا مارتين وبليرون وقصص ((ألف ليلة وليلة)) . وقد أوحت اليه تلك المطالعات وتلك الأحلام قصة ((الجنية الأخيرة La dernière fée)) . وهى حكاية صبى يدعى ((أبيل)) نشأ يحب صور الجنيات ويطيل النظر فيها ، فلما شب وفقد أبويه ، تعزى بحب الفتاة الفقيرة ((كاترين)) التى تشبه احدى الجنيات الحسناوات ، ثم بهرته سيدة انجليزية ثرية كانت تروح عن نفسها فى التفكير أمامه فى زى جنية اللآلىء ، ولم تلبث حتى استدرجته الى قصرها وتزوجته زاعمة له أنها الجنية دائما .

وهناك يأتيه نعي كاترين فيحزن ولكنه يجد السلوان في صحبة فتى خادم التحق بقصره يشبه كاترين الى حد بعيد ، غير أن السيدة الانجليزية تهجره لأنها سئمت هذا اللون من اللهو ، فيفقد صاحبنا عقله . ولكن كاترين — وهي التي تنكرت في زي الفتى الخادم — تعيده الى قرينته ، وتعيد اليه رشده .

على أن بلزاك يعود سنة ١٨٢٤ الى شخصية ((القرصان أرجو)) ويتخذ منه بطل قصته الجديدة التي يعنونها اذ ذاك ((أنيت والمجرم)). وفي هذه القصة يلتقي ((أرجو)) بفتاة رقيقة تقية من الطبقة الاجتماعية الوسطى تدعى ((أنيت جيرار)) ، فيحبها ويتمنى أن يتوب وأن ينسى ماضيه وأن يعيش معها ، ولكنه لايكاد يستغفر الله ويبدأ حياته الجديدة حتى يكشف القضاء شخصيته الحقيقية ، ويدينه ، فتموت زوجته أنيت حسرة عليه .

والى جانب بطل القصة الذي ظهر قبل ذلك في ((قسيس الاردن)) تعود الى الظهور شخصيات أخرى يتعرفها من قرأ تلك القصة السابقة وهكذا سوف يبعث بلزاك أبطال ((الكوميديا البشرية)) ويستعيدهم بأسمائهم وخلائقهم في سلسلة من الروايات المستقلة .

وتتميز في القرصان أرجو قصتان متداخلتان ، الاولى قصة حب ((أرجو)) لأنيت ، ودراسة تحول هذا الرجل من الشر الى الخير، وتلك قصة نفسانية ، والاخرى قصة التحري والقضية وعصابة قطاع الطريق التي تهاجم السجن وتحارب القضاء ، وتلك قصة مغامرات وقد رأينا كيف أنشأ بلزاك عدة قصص قوامها هذان العنصران . ولكن الجديد هنا هو ايثارة القصة النفسانية على قصة المغامرات ، فما يهتم ((أرجو)) بأمر اعتقاله الا في النطاق الذي فيه يقضي هذا الاعتقال على حبه وسعادته ، ومايهتم بالدفاع عن نفسه وانما يذعن للعقاب اذ يرى فيه بعينه الجديدة تكفيرا عما أسلف من ذنوب . أي أن حب ((أرجـــو)) لأنيت في الرواية ليس عنصرا سلبيا فحسب يتلقى الصدمات من الخارج ويتأثر بها ، بل هو حافز ايجابي يؤدي الى

نتائج معينة ويؤثر فى أحداث القصة ويحدد مصير أبطالها . لقد انتقل بلزاك من قصة المغامرات التى تشمل حبيبين ، الى قصة الحب التى تشمل مغامرات . وانها لخطوة كبيرة فى سبيل القصة النفسانية .

ويتقدم بلزاك خطوة اخرى فى هذا السبيل بكتابة روايته التالية «فان كلور أو جان الشاحبة» Wann-Chlore التى ظهرت عام ١٨٢٤ وكان يفكر فى صياغتها منذ عام ١٨٢٢ . وهى قصة دوق يدعى «هوراس لاندون» يعتزل ، بعد صدمة عاطفية ، فى قرية صغيرة يلقى فيها فتاة رقيقة تؤنس وحشته وتخفف لوعته فيقترن بها بعد تردد ، حتى اذا علم أن تلك التى كان يحبها أولا لم تغدر به وانما كانت ضحية مؤامرة غريبة مدبرة ضده ، استيقظ حبه واعتزم أن يفر ليستانف بجوارها سعادته القديمة ، وانه ليتزوجها باسم مستعار ، ولكن زوجته تفلح فى العثور عليه وتلتحق ببيته خادما ، فيؤدى هذا الموقف العجيب بالعاشقين الى اليأس المميت .

وهنا ، تسود القصة العاطفية كل شيء ، وان لم يجد القلم الذى اعتاد استغلال عناصر القصة السوداء مفرا من تعقيد الاحداث واختلاق مؤامرة غريبة لتبرير انفصال العاشقين .

وقد حرص بلزاك على تنشئة كل من «جوزيف» بطل «قسيس الاردين» و «أبيل» بطل «الجنية الاخيرة» بعيدا عن المجتمع وأدرانه. أما الاول فقد أنفق صباه مع تلك التى كان يظنها أخته بين مراتع الطبيعة الجميلة ، فى جزيرة نائية تشبه جزيرة «بول وفرجينى» . وأما الاخير فقد وقاه أبوه شرور الحضارة اذ انتبذ به وباءه منذ ولدته كوخا فى الريف الوديع الطاهر ، فحال بينه وبين الاختلاط بالناس . وكذلك لقن بلزاك جنيته نقدا لاذعا لحياة البشر ومايأتون من أعمال صغيرة فى عالم صغير . وكان فى هذا كله مقلدا لكتاب القرن الثامن عشر ، الذين نادوا ، وعلى رأسهم «روسو» ، بوجوب العودة الى الطبيعة لأن الحضارة مفسدة للانسان .

وينبغى ألا يفوتنا تسجيل ماأصابه بلزاك فى روايتيه الاخيرتين من تقدم واضح فى رسم الاشخاص . فقد أخذ الابطال يتميزون بصفات خاصة لايشاركهم فيها أبطال القصص التقليدية الشائعة . هــذه ((أنيت)) تشبه فى وداعتها ورقتها فتيات القصص الغرامية ، ولكن لها طبيعة جادة وارادة حازمة ، وعاطفة دينية تضفى على جميع حركاتهـا سذاجة وسموا ، وضميرا مرهفا يقودها الى مصيرها المحتوم . وهذا القرصان أرجو ، لايواصل الثورة على المجتمع والثــأر من الافــراد والسلطات ، وانما يتجدد بفضل الحب والدين فيأبى أمام القضاء أن يكذب وأن يلقى أوزاره على كاهل سواه . ومن وراء هذه الملامح وتلك ، يبدو اتجاه بلزاك الى الاستقلال الفنى ، الى تغيير القوالب المبتذلة ... فانه يعرف الآن اصول المهنة ، ويريد أن يكتب قصصـا تحليلية . والقصة التحليلية تدعو الى تعمق الشخصيات قبل كل شيء . لقد انتهى طور العناية بالاحداث والمفاجآت ، وجاء طورالعناية بالمشاعر والعواطف .

وقد بدأ بلزاك فى الوقت نفسه يصور بعض مايرى حــوله ، ويصف بعض من عرف أو بعض ماعرف فى الحياة الواقعية . فهــو يجعل من ((أنيت جيرار)) ابنة موظف باريسى صغير ، ويعــرض علينا مشاهد من حياته اليومية حين يعمل فى الديوان وحين يؤوب الى البيت وما من شك في أنه أسكن تلك الاسرة دارا بشارع ((فيى دى تمبل))لانه هو نفسه كان يسكن مع أسرته هذا الشارع اذ ذاك . وهناك شخصية ثانوية فى قصة ((فان كلور)) تدعى ((مدام دارنوز)) لابد أن الفنى الاديب استعار خليقتها من شخصية أمه التى كانت تحب السيطرة ولاتكف عن النقد والثرثرة ..

لقد خطا بلزاك اذن خطوات ملحوظة الى الامام . أصبح يعى انه أتقن صناعة الحوار والوصف والسرد ، واضحى لايستوقفه الا تصور القصة ، وعلى أى القوائم تقوم ، وعلى أىالقواعد ترتكز . كم شخصا

ولماذا ؟ ومانفسية كل منهم ؟ وكيف يتفوق الابطال على غير الابطال ؟ فان للرواية دعائم ينبغى أن يدرسها القصاص قبل أن يخط سطرا واحدا وهذا مافطن اليه كاتبنا الناشىء بعد تجــارب كثيرة وتدريب شاق .

لم يكن ذلك دأبه فى أول الامر . لقد اقبل على الادب يدفعه طموح ساذج ، فتردد بين القصة والمسرح ، ثم استقر على القصة اذ وجدها أفضل وسيلة يذيع بها كاتب آراءه وفلسفته ، وهــــذا هـــو طور «كرومويل» و «ستينى» . ثم زهده فى طموحه رفيقان صحفيان جذباه الى أن يكتب روايات غثة ، فقلد معهما النماذج الأدبية الرائجة ساخرا منها ، ثم قلد تلك النماذج بعد ذلك وحده تقليدا جديا عسى أن يحظى بمثل رواجها ، ولكنه أخطأ الرواج واكتسب براعة الأداء ومهارة العرض فى فن القصة . وأخيرا أحس أنه على الرغم من اجـــادته الاخراج لايعمق قصصه من حيث الاسس والعنـــاصر تعميقا كافيا ، فحاول فى «القرصان أرجو» و «فان كلور» أن يسد ذلك النقص .

★★★

والآن ، بعد أن تدرب على ألوان القصص المختلفة ، وبعد أن أتقن تصريف الوسائل الفنية ، وبعد أن قلد جميع الكتاب ، لم يبق عليه الا أن يعرف نفسه ، وأن ينتج مادته ، وأن يصوغ هــذه المادة فى أفضل اطار يناسبها . هو الآن يريد أن يتلفت حوله ويسجل بعض مايشاهد . وهاهوذا يدرك ما الموضوعات الجديرة بقصصه . ففى المجلد الثانى من قصة «أنيت والمجرم» ، يدخلنا مع بطليه الى الكنيسة حيث نصغى الى العظة التى تنير للقرصان طريق الخير ، العظة البليغة المؤثرة التى يلقيها الأب «مونديفير» على جمهور المصلين ، معددا فيها من الخطايا المستترة والذنوب المنكرة مايقترف الناس فى كل يوم دون رادع من خوف أو حياء ، ودون أن يندى وجه الفضيلة الجامد الذى اتخذ من الرياء الاجتماعى نقابا صفيقا :

«انظر الى الوراء وقلب صفحات كتاب حياتك ! .. أما أنت فقد أولت نصوص القانون التأويل الذى ينفعك ، فكسبت قضية جائرة وهدمت بيت عائلة .. وأما أنت ، فقد خنت وطنك وبعت بلادك ... وأما أنت ، فقد هجرت زوجتك بعد أن عاهدتها عهود الوفاء والشرف .. وأما أنت ، فقد اتخذت من أخطاء زوجك ذريعة تبررين بها حياتك الماجنة .. وأما أنت ، فقد أدرت عينيك ـ ذات مساء ، حين لفظ عمك آخر أنفاسه ـ نحو الخزينة التى تضم وصاياه ، واخرجت منها وصية ، كان الشيخ الغرير قد وثق فى مظاهر ولائك فتلاها عليك ، وأسلمت هذه الوصية لجذوة النار .. وهذا كله لايغض فى نظر الناس من فضيلتكم ومن شرفكم .. لقد احتال امرؤ منكم حتى أوحى الى عم شيخ بان أولاد أخيه لايحبونه ، فأفلح ، بعد عشرين سنة ، فى اتمام حرمانهم من الميراث .. لقد رفض امرؤ منكم أن يفتح بابه لاقرباء له بائسين .. لقد أرسل امرؤ منكم زوجته لكى تلعب بضمير القضاة ، فكانت هى التى أقامت لهم من الحجج ماضلل العدالة .. وأنت ، لو قد استطعت أن تقتل بنظرة منك فى بلد بعيد رجلا أوشك على الهلاك دون أن تعرف الارض أمرك ، لكى تظفر من وراء هذه الجريمة المجهولة بثروة طائلة ، لما ترددت لحظة .. ان شرائع الارض واأسفاه لاتنال جميع المجرمين ! .. وعلى الرغم من بشاعة هذه الجرائم ، فالناس يرتكبون مئات الفظائع الاجتماعية الخليقة بذلك الاسم !.

تلك صورة المآسى التى راحت تطوف برأس بازاك وباتت تختمر فى ذهنه . انه يستعرض فى هذه الصفحة الموضوعات التى تدعو قلمه الى معالجتها . واذا كان بعض تشاؤمه راجعا الى اصطدامه بواقع الحياة حين نزل الى ميدان الادب المجدب واتصل بصغار الفنانين والصحفيين ، واذا كان بعض هذا التشاؤم راجعا الى قراءته «طرطوف» موليير و «خلائق» لابروير و «زاديج» فولتير وكتب مونتسكيو وديدرو وروسو ومن ذهبوا مذاهبهم ، فما من شك فى أن شيئا من هذا التشاؤم قد استقاه من حكمة المرأة التى احبها حبه الاول .

الحب الأول

((كانت مــدام دى روزان فتية القلب عندما أشرفت على سن الأربعين ، هذه السن التى تكتسب فيها عواطف النساء آخر درجات القوة ، فقد كانت تحب التأمل وتذرف الدمع أحيانا فى الخفاء)) .. هكذا يصف بلزاك أم ((قسيس الاردين)) . وأكبر الظن أنه كان يفكر حين كتب تلك السطور فى شخصية امرأة حقيقية ملأت صورتها قلبه اذ ذاك ، هى مدام دى برنى ، فوصفها ، وأطلق عليها فى روايته اسم الماركيزة دى روزان .

ولعله قد رأى تلك السيدة أول مرة فى حفلة راقصة ، ففتنه جمالها الناضج ، ودفعته جرأته الى أن يطبع قبلة مجنونة بين كتفيها البضتين ، البارزتين من ثوب السهرة ، فهكذا فعل الفتى ((فليكس)) مع ((مدام دى مورسون)) فى رواية ((الزنبقة فى الوادى)) ـ التى سوف يستعيد فيها بلزاك بعد انقضاء خمس عشرة سنة ذكرى غرامه الاول . ومن الطريف أن يكون هذا أيضا هو أمر ((أندريه جيد)) عندما كان فى الخامسة من عمره ولقى ابنة خال له ذلك اللقاء الاول الذى يرويه فى احدى قصصه فيقول : ((حين دخلت غرفة الاستقبال قالت لى أمى هيا قبل ابنة خالك .. فتقدمت وجذبتنى اليها . ولكنى لاأدرى أى دوار أخذنى أمام روعة كتفها العارية ، فانى بدلا من أن أضع شفتى على الوجنة التى مدتها لى ، مضيت الى الكتف الباهرة التى سحرتنى أعضها بأسنانى عضا .

مهما يكن من صحة هذه الظواهر التى يهتم بها علماء التحليل النفسى ، فقد كانت «لور دى برنى» ، على الرغم من سنيها الاربعين، امرأة ذات جمال ورقة ، بيضاوية الوجه بأرزة الشفتين ، واسعة العينين حالمة النظرات ، كما تبدو فى الصورة التى رسمها لها الفنان فان جور . وكان أبوها موسيقيا نمسويا من جوقة القصر الملكى فى عهد لويس السادس عشر ، توفى وتركها وهى فى ميعة الصبا ، فتزوجت أمها الفرنسية نبيلا عريقا كان أثناء الثورة من أشد الاشراف ولاء للعرش . وأما زوجها ، جبرييل دى برنى ، فقد كان حين عرفه بلزاك مستشارا ملكيا مريضا مهدما ، فى الرابعة والخمسين من عمره ، ويقال انها لم تعرف معه الهناء منذ اقترنت به فى ربيعها السادس عشر، وراحت تبحث عن هنائها المنشود فضلت مرتين ، الأولى فى مونبلييه والثانية فى فيلباريزيس .

ان تلك السيدة الآن جارة لأسرة بلزاك ، من بعيد ، فهى تسكن أقصى أطراف الضاحية ، مع زوجها هذا الشيخ وبنيها الذين يبلغ أصغرهم السادسة من العمر وبناتها اللائى تبلغ كبراهن الرابعة والعشرين ، هناك فى قصر ضخم أنيق يطل على حديقة غناء ولم تكن تزور آل بلزاك الا لماما ، فما كان يعجبها رب البيت بأطواره الغريبة ولا كانت تعجبها ربة البيت بثرثرتها وهذرها . ولكن قدوم أونورية كان مفاجأة لها . فانها لم تلق قبل اليوم شبيها لهذا الفتى العريض الجبهة الساحرة العينين ، المتوقد ذكاء وحيدة وطموحا . وحدست بصيرتها أنها أمام نفس غنية ، غزيرة الموارد ، مشرقة الآفاق . ولم تلبث حتى رأت فى ضوء تلك النفس الباهرة أنها امرأة غير راضية ، وأن الشباب ينسحب عنها ولما تعرف السعادة ، وأن فى الخريف نعيما عذبا قد يشفى الحنين الملح الى مباهج الربيع التى مضت ولن تعود. وباتت تموه على عاطفتها أو تموه عليها عاطفتها ، فهى تنظر الى هذا الفتى بعين وامقة وتزعم لنفسها أنها لا تحب فيه غير ذكرى ولد لها عزيز فقدته ، ولو قد عاش لأصبح فى مثل هذا الشباب وهذه

النضرة . وأخذت تهتم بما يعمل اونورية ، واقبلت تجلو لأمه السادرة عنه مواهبه وامتيازه . لقد فهمته وأحبته وحنت عليه خيرا من امه .. وما أشد ما كانت حاجة أونورية الى أم غير تلك التى جفته منذ طفولته وما فتئت تؤنبه وتقصيه عنها أكثر مما تشجعه وتضمه اليها ، ما كان أشد جوعه الى الحنان والعطف ، الى قلب كبير يبثه آمال قلبه وآلامه كلما فاضت وضاق بها صدره ! كلاهما كان اذن يبحث عن الحب ، وكلاهما لقى لدى صاحبه مايسد النقص الذى كان يحسه فى حياته الخاصة أما هى فامرأة جميلة رقيقة فى آخر الشباب ، تنشد الرجولة قوية فتية لأن زوجها شيخ ضعيف ، وأما هو ففتى مضطرم المشاعر ، فى أول الشباب ، ينشد الأمومة والعطف والجمال فى صورتيه المعنوية والحسية .

وسرعان ما كتب اليها يعلن حبه . وهذه مسودة رسالته الأولى ـ فقد حفظ بلزاك مسودات رسائله لمدام دى برنى ، وحفظت هى الرسائل ولكنها أمرت باحراقها يوم وفاتها . انها فاتحة ممتازة ، كفاتحة كل قصة رائعة سيدبجها قلمه فيما بعد :

« انك شقية ، أعرف هذا ، ولكن فى نفسك موارد أنت تجلبينها وما زالت تستطيع أن تربطك بالحياة . حين طلعت على ، طلعت فى هذا الجمال الذى يحوط جميع من تصدر شقوتهم عن قلبهم ، وانى لأحب المتألمين قبل أن أراهم . وهكذا كان لى حزنك سحرا وكانت لى تعاستك فتنة : ومنذ اللحظة التى بسطت فيها محاسن روحك ، تعلقت كل أفكارى على غير ارادة منى بالذكريات الحلوة التى حفظتها لك ... هكذا أنا الآن ، وهكذا ساكون دائما ، حبيبا فائق الحياء ، عاشقا يدفعنى الوجد الى الهذيان ، وعفيفا الى الحد الذى لا أجرؤ معه أن أقول : انى احبك . وان بعض هذه العفة وبعض هذا الحياء فى العاطفة لنا شىء من دواعى الخشية والخجل التى يثيرها الصد فى نفسى . ذلك أنى لم أبل الصد قط ، اذ لم أتعرض له قط ، فاننى اليوم للمرة الأولى اخاطر بتصوير ما أجد من شعور . »

ولم تشأ مدام دى برنى أن تقبل عليه ، ولم تشأ أن تنفر منه. لم تقل له نعم ولم تقل لا ، وانما لاذت بالسخرية والمزاح ، وأجابته بانه غير جاد فيما يزعم ، وأنه خليق بأن ينساها سريعا ، فهو يبلغ ثلاثة وعشرين عاما وهى تكبره بثلاثة وعشرين أخرى ، ولن يراها الا وحولها أولادها ... أما الفتى فلا يطيق صبرا : « أو ليست دعابة قاسية هذه التى تسوقين لى ؟ ورسالتك أليست الثمرة الناضجة لنقيصة كبيرة ؟ ... هذا المكر النسائى ، أليس عيبا كبيرا لديك يامن لم أكن أظنها امرأة كسائر النساء ؟ تالله لو قد كنت امرأة ، وكان لى من العمر خمس وأربعون سنة وما زلت جميلة رقيقة ، لاتخذت غير سيرتك .. ياللمعضلة التى أراها ازائى فى أمر امرأة تجد عند بدء خريفها ، أيامًا تعدل أيام الصيف جمالا ، امرأة ذكية الفؤاد تقدر الدنيا كما هى فى الواقع وتأبى على نفسها أن تقطف التفاحة التى ضيعت أبوينا الأولين ! .. »

وتلك لغة ينقصها الذوق ، وتنقصها البراعة . وأنوريه يعترف لمدام دى برنى فى رسالة تالية بغلطته وتخبطه ، ولكنه لايتورع فى الوقت نفسه عن التمدح بما يشبه الذم : يصارحها بانه أعزل من كل وسائل الهجوم ، أعزل من لسان العاشق ورقته وحيلته ، ويمثل لها نفسه بفتاة وديعة حيية مضطربة تخفى تحت ستار الوداعة والحياء والاضطراب نارا آكلة خليقة بأن تعدو الرماد الذى يكتمها وأن تمتد الى الموقد والى الدار فلا تبقى على شىء ...

أظهرت « مدام دى برنى » استياءها من هذه العاطفة المتأججة ، وأمرت أونوريه أن يمسك عن حديث الغرام ، وأن يقنع بصداقتها وودها أن كان يعزها حقا . واتصل تلاقيهما وتراسلهما على أساس الصداقة والود ليس غير . بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى تحولت الصداقة الى ألفة ، وتحول الود الى أنس فضعفت المقاومة ، وانتصر الحب ، وشهدت أشجار الحديقة الغناء ، ذات ليلة ، أول قبلة

لهما . ثم هذا المشهد نحو الساعة العاشرة ، ثم دلفت هي الى غرفتها ، وعبر هو القرية الناعسة ، وتسلل الى مكانه من بيت الأسرة ، وبات يكتب في نشوته : « أي لور ، انما اكتب اليك والليل من حولي ساج تملؤه صورتك وتتبعني فيه ذكرى قبلاتك العاتية ، وأي افكار عساي أن أجد ؟ لقد ذهبت بأفكاري جميعا . أجل ، لقد اتصلت نفسي كلها بنفسك ، ولن تسيري منذ الآن الا معي . أوه ! ان سحرا عذبا يحوطني فما ارى غير الأريكة ، ولا أحس الا ضغطك الرفيق ، وما برحت الأزهار التي أمامي ، على حظها ذاك من الذبول ، ذات أريج مسكر .. »

ومنذ تلك الليلة بدأت المخاوف ، وبدأت الظنون ، وبدأ الحرص على ابعاد الشبهات . انهما ليحسان أن جميع العيون تراقبهما ، وأن جميع نوافذ القرية ترصدهما . ولم تعد دروس الفتى لأصغر أبناء « دي برني » علة كافية لتبرير تردده الدائم على ذلك البيت . وأخيرا رأت مدام بلزاك أن تضع حدا لهذه العلاقة التي راحت الألسن تلوكها في فيلباريزيس ، فعجلت بترحيل ولدها الى « بايو » ليستجم لدى اخته التي تزوجت واستقرت هناك .

ولم تكن تلك خاتمة القصة ، فسينزح آل بلزاك وآل دي برني الى باريس ، وباريس تبيح لأهلها مالا تبيحه قرية صغيرة . سينمو في العاصمة اذن ذلك الحب الذي نشأ في الريف ، سيمتد ويشتد ، ويؤثر في حياة بلزاك وفي أدبه آثارا عميقة .

★★★

ولعل أول هذه الآثار ما طرأ على آراء بلزاك السياسية والدينية من تحول . فقد كان قبل حبه لمدام دي برني من انصار الثورة ومن خصوم الملكية والكنيسة ، ولكنه نشر سنة ١٨٢٤ بحثين متتاليين في اولها Du Droit d'Aissene دفاع عن العرش وحقوق الولاية

والوراثة ، وفى الثانى Histoire impartiale des Jésuite دفاع عن طائفة الآباء اليسوعيين . غير أن الأستاذ جويون في رسالته الضافية عن فلسفة بلزاك السياسية والاجتماعية قد خطأ القائلين بهذا الرأى، ودلل على أن «مدام دى برنى» لم توح الى بلزاك أفكارا سياسية أو دينية ، وانما اوحت اليه أفكارا أخلاقية اذ حددت موقفه من الخصومة القديمة القائمة بين عاطفة الحب وتقاليد المجتمع ، فالزواج – عند بلزاك – مخالف لشرائع الطبيعة فى منعه المرأة المتزوجة من الاستجابة لنداء قلبها ....

ومهما يكن من أمر الأثر الفكرى الذى أحدثته « مدام دى برنى» فى عقلية بلزاك ، فهناك آثارها الواضحة – التى لا ينكرها بلزاك ولا مؤرخوه – فى نواح أخرى من شخصيته .

لقد بذلت هذه السيدة جهدا كبيرا فى تهذيب الفتى الأديب وصقله . كانت تلفت نظره دائما الى ماتجرفه اليه طبيعته الفائرة المضطربة من اخلال بقواعد اللياقة والذوق السليم ، وكانت – على الرغم من حبها شمائله وعيوبه على السواء – تحاول فى كل مناسبة أن تقوم اوده . وهذه احدى عباراتها الصائبة له : « اسع ياعزيزى الى أن يراك الجمهور بأجمعه لارتفاع المكان الذى تقوم عليه ، ولا تهب بالناس أن يعجبوا بك ! » . وبفضل دروسها ونصائحها اكتسب بلزاك من رقة الخلق ما أتاح له أن يندمج فى المجتمع الراقى ، ويغشى أعظم « صالونات » العصر ، وأن يكتب سنة ١٨٣٠ « رسالة فى الحياة الأنيقة » التى أصبح كلفا بها .

وكانت «مدام دى برنى» فوق كل شىء خير معلم لهذا القصاص الناشىء . كانت امرأة ناضجة القلب والعقل ، قد اجتازت محن السياسة التى عصفت بطبقة الأشراف فى الثورة الفرنسية ، وتقلبت بين تلك الأهواء التى تتنازع نفس امرأة ، فتاة أراد الزواج أن يجعل من شبابها شيخوخة مبكرة . ان ماضيها الحافل بالذكريات والتجارب

والعواطف والآلام لمدرسة كبيرة جامعة . وكم أصغى اليها أونوريه ، وكم اجتر أحاديثها وآراءها . لقد علمته الحياة وكشفت له أسرار المرأة . ولولاها ما كتب قصة ((الزنبقة فى الوادى)) ، ولا عرف السبيل الى قلوب النساء . ولو قد أحب فتاة غريرة فى ربيع العمر لظلت تعوزه ثقافة الأديب وتربية الأديب . وسوف تمر فى حيـــاة بلزاك وجوه أبرع جمالا من وجه ((مدام دى برنى)) ، ولكن حبـه الأول لن ينقضى ولن يموت ، بل سيمسى نجمه الهادى ، ووحيـه الخالص ، ومرفاه الأمين .

كان حبا كريما . وكانت ((مدام دى برنى)) أكثر من امرأة عاشقة . كانت أول من آمن بعبقرية بلزاك ، وأول من تكهن بمجده المقبل . وباتت أشد اهتماما به من شقيقته ، وأحنى عليه من أمه . وما من شك فى أنها كانت تقول له مثل هذه الكلمات التى تقولها مدام دى مورسوف لفليكس فى ((زنبقة الوادى)) : ((ليس ما يعدل حنانى . آه ! انى أريد أن أراك سعيدا ، قويا ، مرموقا ، أنت الذى ستكون لى كالحلم الحى)) ...

***

على أن قصصه التى نشرها لم تحقق هذا الحلم . لم تجلب له المال ولم تجذب نحوه أنظار الجمهور . أين يكون النجاح اذن ؟من أين تؤتى الثروة ومن أين يشرق المجد ؟ لقد تأكد الفتى الأديب بعد كل ما أراق من المداد على الورق أن كتابة القصص طريق وعره وجهد مجدب . وها هو ذا يقدح ذهنه ويمد بصره ، ليترسم اقصر سبيل الى أهدافه ، فيخلبه سراب المشروعات الأدبية التجارية ، ويصح عزمه على طبع الكتب الكلاسيكية الفرنسية ، كتب لافونتين وموليير طبعة مركزة لدى الناشر ((أو ربان كانيل)) وتوزيعها لحسابه الخاص . ولم يقف فى طريقه احد ، فان والديه اللذين استيأسا من مستقبله

قد أرضاهما أن يقوم بعمل منتج وأما رأس المال فقد أمدته به مدام دى برنى . ثم كانت الـــكارثة . خسر الفتى كل شىء ، وخرج من مشروعه مدينا بخمسة عشر ألف فرنك ... ولـــكنه لم يهن ولم يتخاذل ، بل راح يقدح ذهنه ويمد بصره ، فرأى النجاة فى شراء مطبعة والاشتغال بالطباعة . وهناك ، فى جو المطبعة القاتم الكئيب، كانت « مدام دى برنى » تشرق عليه كل يوم لتؤنس وحشته وتشحذ همته ، حاملة اليه فى أكثر الأحيان وجبة من طعام ليأكل ، فقـد كانت تعلم كيف يستغرقه العمل ، وكيف يصرفه عن الطعام والشراب أياما بأكملها . ولم يمض عام ونصف عام حتى بدأ عمال المطبعـــة يتذمرون ويطالبون بأجورهم المتأخرة ، وأخذ الدائنـــون يحاصرون الدار ... ولكن الفتى الأديب لم يذعن للفشل الذى لاحت بوادره، بل مضى يقدح ذهنه ويمد بصره ، فاهتدى الى مسبك حروف معروض للبيع على اثر افلاس صاحبه . أوليس فى شراء هذا المسبك خلاصــه مما تورط فيه ؟ لم يشك فى الأمر . وساهمت معه مدام دى برنى فى هذه الصفقة الجديدة بمبلغ كبير من المال . وفى ربيع ١٨٢٨ وقع ما لم يكن بد من وقوعه ، واضطر صاحبنا الى اعلان افلاسه . وأسرع أبوه فسدد جانبا من ديونه خشـــية أن ينقلب الدين على الأسرة ، وعهد الى أحد الأقرباء بتصفية العمل . وكانت الخسارة فادحة ، فقد بلغ نصيب « مدام دى برنى » منها خمسة واربعين ألف فرنك، وبلغ نصيب الأسرة أربعين ألفا ، وكان هناك دائنون أخر .

هكذا وقفت مدام دى برنى الى جانب الفتى الأديب فى أيامه الحالكة ، تعينه بالحب والمال والنفوذ ، وتضحى من أجله كل شىء. وقد عاش بلزاك يذكر فضلها عليه ويبالغ فى الاعتراف بجميلها فيقول لخلصائه انها خلقته خلقا . وكان يحبها ويجلها ، فلم يكن يسميها باسمها فى رسائله الخاصة الى أمه أو أخته ، بل يكنيها دائما «بالأثيرة وقد ظلت شخصية الأثيرة هذه سرا غامضا مجهولا حتى تولى باحثان

من رجال الأدب الفرنسى هما « جبرييل هانوتو وجبرييل فيكير » دراسة تلك الفترة المغمورة من حياة بلزاك بين عامى ١٨٢٥ و ١٨٢٨، فعثرا ـ بعد نصف قرن من وفاته ـ على وثيقة ثمينة أزاحت ذلك الستار الكثيف ، وجلت شخصية « مدام دى برنى » ، وألقت نورا ساطعا على كثير من صفحات « الكوميديا البشرية » . ولم تكن تلك الوثيقة سوى عقد الشركة التى تألفت بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٨٢٨ « بين الموقعين أدناه جان فرنسوا لوران سابك الحروف المطبعية طرف أول وانوريه بلزاك طرف ثان وأيضا مدام لويز ـ انطوانيت ـ لورهينر ، بالتوكيل عن مسيو اتيين ـ شارل ـ جبرييل دى برنى زوجها ، المستشار الملكى ... » . ومنذ تلك اللحظة وقف مؤرخو بلزاك على حقيقة طور هام من أطوار نشاته ، واستطاعوا أن يتتبعوا فصول حبه الأول .

نحو المجد

انه يبلغ من العمر تسعة وعشرين عاما ، وتبلغ ديونه مائة ألف فرنك . وذلك عبء فادح قد ينوء به كاهل عملاق شديد . ولكن الكارثة لم تهد عزمه ، بل ألهبت نشاطه ودفعته الى انتاج خصب . لم يعبس ولم يأسف ، لم يسخط على نفسه ولم يحقد على القدر ، وانما قال إنه لايصلح لطبع الورق وسبك الحرف كما لم يصلح من قبل لانشاء المسرحيات . ولعله رأى ، وقد ثقفه الكفاح العنيف والحب المضطرم والفشل تلو الفشل ، أنه الآن خليــــق بان يكتب قصصا ناضجة يصور فيها الحياة بحلوها ومرها أصدق تصوير .

هاهو ذا يفر من المحنــة القاسـية الى أقصى أطـراف باريس ، حيث يستأجر دارا ظليلة تحوطها المزارع المترامية ، وتطل نوافذها على الخـــلاء والافق العريض . ويؤثث داره الجـديد أثاثا مترفا ، فيخلع الطنافس الباذخة على أرض غرفته ، ويحلى الحائط أمامه بساعة مرمرية ثمينة . ويشترى فى الوقت نفسه مجموعة رائعة من الملابس الفاخرة . وعبثا تلومه أسرته على هذا الاسراف الجنونى ، فقد كان يريد أن يتأهب للقاء المجد . ولم يكد يستقر حتى أرسل الى أخته طالبا أن تبتكر له ستارتين زرقاوين مطرزتين باللون الأسود، قائلا لها : ((فانى عندما أسدلهما ، لن أستطيع أن أكتب شيئا رديئا)).

ولما كان القراء اذ ذاك يتهافتون على القصص التاريخية ، فقد

رغب أديبنا بعد أن أخفق منذ سبع سنين فى قصتيه التاريخيتين « وارثة بيراج » و « اليهودى الوسيم » ، أن يؤلف قصة من ذلك اللون بعينه على أن يكفل لها عناصر النجاح . وأكب على دراسة المذكرات المكتوبة عن نصف القرن السابق ، فاهتدى الى موضوع قصة طريفة فى تاريخ حرب « الشوان » تلك التى واصل الملكيون فى شمال فرنسا شنها على الحكومات التى اعقبتها الثورة حتى تولى نابليون العرش . ولكنه أحس أن معلومات الكتب لاتكفيه ، وأن لهذه القصة اطارا خاصا ينبغى أن يجتليه فى بيئة هذه الأقاليم الشمالية، وطبيعة أرضها ، وعادات أهلها . أحس حاجته الى أن يرى بعينيه المشاهد التى يزمع أن يصفها وأن يسمع بأذنيه لغة القوم ، وأن يلمس بنفسه حقيقة نفوسهم . وتذكر أن « الجنرال دى بوميرول »، أحد أصدقاء والده ، يقطن بلدة « فوجير » فكتب اليه ، ورحب الجنرال بمقدمه أجمل ترحيب .

وهناك مضى الفتى الأديب يضرب فى أحياء المدينة العتيقة ، يستطلع آثارها ومعالمها ، ثم يمعن فى الضياع المجاورة حيث يختلط بالفلاحين فى حقولهم وبيوتهم ، حتى اذا سجل فى أوراقه جميع ما لاحظ من مشخصات الحياة الاقليمية الأصيلة ، انقلب الى غرفته فى دار مضيفه ، وبسط مذكراته يستنقيها ويكتب ، ولا يغادر مائدته الا ريثما يتناول الطعام مع أهل البيت . على أنه قد انباهم أنه مملق من المال ، وانه لن يوفيهم أجر اقامته لديهم الا قصصا يرويها لهم كل مساء ، فكان بعد العشاء ــ برا بوعده ــ يفتتح قصته فى أغلب الاحيان مخاطبا مضيفه : « لا بد أنك عرفت أيها الجنرال فى مدينة كذا أسرة فلان ... اذن فاعلم أن هذه الاسرة قد باتت غب رحيلك مسرحا لمأساة يجهلها الكثيرون ... » ويسترسل فى حديثه على هذا النحو فيخلب جلساءه بحرارة القائه وصدق تصويره للواقع. ولايكاد يفرغ من قصته حتى يسأله الجنرال فى لهفة :

ـ أحقا حدث هذا ؟

ـ لم يحدث منه شيء . وانما هي قصة تمثلتها . أوليس انشاء القصص عملا جميلا ؟ أن هـؤلاء الناس يحيون ويحبون ويتألمون ، في رأسي ، واذا شاء الله أن يمد لي حبل العمر فسوف أنسق هذا كله في كتب رائعة .. سوف ترى ياسيدي ! ...

وبعد أشهر خمسة ظهرت قصة ((الشوان)) : انهـا الثورة تتاجج نيرانها بمقاطعة البريتاني ، والملكيون الثائرون يحـاولون اضرامها في المقاطعات المجـاورة ، وعلى رأسهم فتى مغوار كريم متحمس هو ((الماركيز دى مونتوران)) . بيد أن ((فوشيه)) لاتعوزه الحيلة للايقاع بعدوه ، فقد أغرى فتـاة من ممثلات الاوبرا تدعى ((مدموازيل دى فرنوى)) بأن تستدرج ذلك الفتى العاطفى وتسلمه مقابل ثلاثمائة ألف فرنك وتلقاه الفتاة على سفر ، متنكرا ، في فندق صغير مع عشيقة له تدعى مدام ((دى جوا)) هو يزعم للناس انها أمه، فتحول دون أن يعتقله رجالها لأنه راقها ولأنها مالت اليه . ويعـرض الفتى عليها الضيافة في قصر عتيق ، حيث يجتمع زعمـاء الثورة لاتخاذ خططهم . وهناك يكشف القوم أنها جاسوسة عليهم ، فيفتكون برجالها ويعذبونها . ويغضب مونتوران ، غير أن الحب الذى أشعلته في قلبه يشل يده عن تاديبها ، فيتركها لنقمة مدام دى جـوا التى باتت تنهشها الغيرة . وبعد جهاد عنيف ، تستطيع الفتاة أن تبلغ مدينة ((فوجير)) ، حاقدة تريد أن تنتقم . ويتوقع أصحاب فوشيه أنها لن تشـفى غلتها الا بتسليم مونتوران لهم ، أما هي فترى أن انتقامها لنفسها لايكون الا بأسترادادها قلب ذلك الفتى الذىأصبحت تحبه ، وأصبح يبادلها الحب وانها لتقتحم الاهوال حتى تصل الى مقره ، فتشرح له موقفها ، ويتصافيان . ويزمع الفتى أن يرحـل اليها في نفس الليلة ليعقدا زواجهمـا . ولكن خبيثا من أصـحاب

فوشيه يسقط فى يدها رسالة مختلقة تنبئها ان ذلك الزواج شرك منصوب ليس غير ، فتثور ، ويعميها الغضب ، وتعلن لرجال حزبها الموعـــد الذى ضربه لها «مونتوران» كى يعتقلوه متى حضر . ومع الليل يقبل الفتى وبصحبته القسيس ليعقد عليها . فتدرك أنهـا باتت ضـحية خـــديعة دنيئة . ويتم العقــد ، ويطلع الصبح على العروسين وهما مثخنان بما أصابهما من جراح فى محاولتهما الفرار .

أطلق بلزاك فى هذه القصة طاقة الخلق التى كانت تضطرم فى نفسه منذ سنوات عشر . كان يريد أن يكتب قصة غرام ، وها هى ذى قصة غرام . وكان يحب المغامرات العنيفة ، وهاهوذا بطل مغامر يلقى حتفه فى سبيل لقاء فاتنته كأمير من أمراء «ألف ليلة وليلة». وكان كلفا بالوصف ، فوجـد فى البريتانى حلكة الدجى ، وســحر الفجر ، وروعة الغروب ، وأيام الضباب المقنعة وكان يطمح الى أن يفلسف المجتمع ويصور النفوس ، فلقى فى الحزبين المتحاربين ماكان ينشده من اختلاف الطبائع ، ورسم صــورا قوية بارزة لاشــخاص الرواية .

كانت «الشوان» قصة موفقة . انها انتصار الشباب فى الحياة الفنية لأديب ناشىء . وهى أول كتاب رضى بلزاك بأن يضـع عليه اسمه الحقيقى . وقد راجت «الشوان» بعض الرواج ، لا الرواج الجدير بكتاب جيد ، بل الرواج المحدود الذى لن يستطيع كاتب صغير أن يصيب أبعد منه لدى الجمهور مهما أبدع . وما أصدق قول لابروير : أن يذيع صيت كتاب ، ضئيلة قيمته ، هزيلة مادته ، سقيم ، بفضل اسم كاتبه الذى نبه واشتهر من قبل ، أيسر من أن يذيع صيت الكاتب ، وهو بعد ناشىء ، بفضل كتاب ينشره كاملة قيمته ، غزيرة مادته ، سليم » ، ولكن هذا النجاح الاول مهــد الطريق للنجاح الكبير الذى أحرزه فى نفس السنة كتابه التالى

***

ولم يكن كتابه التالى قصة ، ولم يكن نجاحه العجيب راجعا

الى قيمته الفنية فى شيء . انه كتاب يمزج الفكاهة الساخرة بالجد العميق ، ويضيف المرح الماجن الى التحليل الدقيق ، فى موضوع مثير ، قريب من نفس كل امرأة وكل رجل ، وياطالما أغرى الكتاب بالكتابة وأغرى القراء بالقراءة ، ألا وهو موضوع الزواج . وهل أطرف من هذا العنوان : ((علم وظائف أعضاء الزواج)) ؟

ذلك أن بلزاك قد تدرب على كتابة فنون أخرى غير القصة ، منذ اتصل فى عام ١٨٢٣ بفتى صحافى يدعى ((هوراس ريسون)) . وكان ((ريسون)) هذا تاجرا ماهرا من تجار الأدب ، يعرف كيف يفيد من البدع العابرة ، وكيف يستغل نزوات الجمهور ، فكان يكتب ويستكتب وينشر تلك المجموعات التى ابتكرها واطلق عليها عنوان ((القوانين)) ، وهى كراسات صغيرة تولى أن يقدم فيها للقراء ما يهمهم أن يعرفوه من قواعد الحياة الاجتماعية فى كل فرع من فروعها ، كآداب الزيارة وآداب المخاطبة وآداب الملبس ونحو ذلك ، فى فقرات و ((مواد)) موجزة على نسق قوانين القضاء ولوائح المحاكم .. وقد جاراه بلزاك وعاونه فى تلك الصناعة التماسا للرزق ، ولكنه اكتسب فى ممارستها صفات جديدة من حدة الملاحظة ودقة التحليل وطرافة التعبير ، والاتجاه الى نقد المجتمع وترميم أسسه . وثبت خطاه فى هذا الطريق اعجابه بنظرية الكاتب السويسرى لافاتير (Lavater) التى أودعها كتابة الشهير ((فن معرفة الناس من هيئتهم)) . فقد راح بلزاك يطبق مبادىء هذه النظرية من حوله تطبيقا يكشف له وراء خلجات الوجه وحركات الأطراف حوافز الفكر والشعور التى تدفع كل امرىء فى مضطرب الحياة . ومن هنا كانت مقالاته المطنبة فى ((فن تسديد الديون ... دون دفع مليم واحد)) و ((فن عقد رباط العنق)) و ((نظرية المشية)) و ((دراسة الاخلاق من القفازات)) ... وكان ينتهى دائما الى أن جميع مظاهر المرء تنم عن حظه من الثراء أو الفقر ، واسلوب

اقتناصه الثراء أو علة استسلامه للفقر ، فان المال هو سر أسرار المجتمع ...

والحب لا يقل فى المجتمع خطرا عن المال ». وقد اعـد بلزاك « علم وظائف أعضاء الزواج » فى عام ١٨٢٤ ، ولكنه لم ينشره الا بعد أن نقحه وأضاف اليه طوال السنين الخمس التالية . والكتاب نقد مرح لقصة الزواج التى كان ينبغى أن يقوم بتمثيلها بطـلان فقط ومع ذلك فلم يكن بد من أن يمثلها ثلاثة أبطال منذ دخلت الحياة بين أبينا آدم وأمنا حواء فى جنة عدن . ولئن كانت السخرية طابع هذا الكتاب ، فقد اراد بلزاك أن يعرض فيه غير هازل آراءه ازاء اصطدام السعادة الشخصية بمصلحة المجتمع ، وموقفه من الفتئـات القوانين الوضعية على شريعة الطبيعة والقلب الانسانى .

وقد راينا فى قصص أديبنا العزب من « ستينى » الى « فان كلور » أنه يناصر الحب ويخاصم الزواج ، ورأينا كيف أيدت صلته بمدام دى برنى نظراته فى تلك المشكلة . وهنا ، لا يقف بلزاك عند التهكم السلبى الهدام ، بل يقترح للمشكلة علاجا ايجابيا ، فيطالب باجازة الطلاق . ولكن الطلاق ليس علاجا وانما هو وسيلة لفصم عرى الزواج الفاسد ، ودليل ضمنى على فساد الزواج ، هـذا الفساد الذى لا سبيل الى درئه الا أن يسـعى الزوج دائما الى اكتساب حب زوجته والاحتفاظ به . لأن المرأة لاتخون رجلها الا بحثا عن السعادة التى هو لا يمنحها اياها لدى من قد تظنه خليقا بان يمنحها اياها ». فالرجل الأثر والرجل السادر والرجل الضعيف الشخصية هم المسئولون اذن عن هفوات النساء . كما أن نظام تعليم البنات ، القائم على حشو الذهن وكبت العاطفة ، مسـئول عن تخريجهن غريرات جاهلات بحقائق الحياة ومزالقها . ولذلك يدعو بلزاك الى اطلاق الحرية للفتيات ، حتى تكتسب نفوسهن وقلوبهن المعرفة والذكاء ، وفن المخالطة والمعاشرة ، قائلا انه أشرف للمرأة أن تخطىء وهى فتاة من ان تخطىء وهى زوجة .

ومهما يكن من شيء ، فقد فتح هذا الكتاب أبواب المجتمع الراقى للفتى الأديب ، وكانت مغلقة دونه من قبل . وهل كان له أن يطرقها وهو من أبناء الطبقة الوسطى ، وروابط أسرته لم تكن تمتد الى أبعد من طبقة التجار والموظفين بباريس ، وطبقة صغار الأشراف بالريف ؟ من الحق أن « مدام دى برنى »كانت تستطيع أن تشق له طريقا الى « صالونات » العاصمة ، ولكنها لم تفعل، لأنها كانت تحبه ، أى تغار عليه ، وتتشبث به ، وتفرق من أن تراه على صلة بمن يصغرنها سنا أو يفضلنها جمالا وجاها . زد على ذلك أنه كان فقيرا يجاهد لتسديد ديونه ، وأنه كان مغمورا لم تكد الألسنة تردد اسمه الا عقب ظهور قصة « الشوان » . أما اليوم، فالناس يتخاطفون كتابه الاخير ، ويقرءونه فى شغف ، ويتهامسون عنه فيما بينهم ، وكم من ربيبة قصر أو سليلة مجد طالعت ، والحمرة تصبغ وجهها ، أسرار قلبها المضطرب فى تلك الصفحات الدقيقة العميقة اللاذعة ، فتاقت الى أن ترى كاتبها ، وتناقشه ، أو تسأله أن يشير عليها .

وهكذا ، فى نهاية عام ١٨٢٩ ، دلف بلزاك الى صالون «صوفى جاى» وصالون «مدام هاملان» ، أعظم منتديات العصر فى باريس ، بصحبة صديقه الاديب لاتوش ، وصديقه الصحفى جيراردان .

ويوم دخل ، بقيادة «الدوقة داربانتيس» ، صالون «مدام ركامييه» الذائع الصيت ، يوم رأى ، بعد عشر سنوات من الكفاح المضنى والخمول الثقيل ، أنه يبرز ويعلو ، أنه يخرج الى النور ويدنو من الهدف ، وأن أضواء المجد الاولى تسطع على وجهه ، أخذته فرحة كبيرة ونشوة عاتية ، عجب لها القوم من حوله . وهناك عرف مع نعيم اللذة فضاضة الشقاء ، فقد سعدت نفسه الطامحة بتباشير

الظفر ، ولكن شعوره المرهف آدمته نظرات الكبار الللابسه ، وابتساماتهم لحركاته ، وتعليقاتهم على أحاديثه . وحفظ فى نفسه تلك الاحاسيس ليصفها فى رواياته المقبلة ، ، وانطلق كالثائر المحموم يغزو معاقل الجاه والثراء والمتعة التى طالما بات يحلم بهما وطالما استعصت عليه .

الأجنبية

سرعان ما تبوأ بلزاك مكانه المرموق فى باريس . لقد امتلأت وجنتاه الفائرتان ، والتمعت عيناه الذهبيتان ، وأشرق وجهه الكالح ، وغلظ قوامه المهزول ، واسترسل شعره الاسود الغزير على رأســـه فكأنه معرفة الأسد ، وأصبح من ذوى العربات والجيـاد والخدم . ورأى الدنيا تبسم له ، والنساء تقبل عليه ، فأمعن فى الترف والاناقة ، وأمسى أولئك الذين ضحكوا من خطواته الاولى فى المنتديات الراقية يرمقونه اعجابا ، ويقتبسون منه فن الظهور . واندفع الى الحيـاة جسورا فائرا ، ينتج ويروع ، ويغامر وينجح ، ويعيش فى الواقــع قصة أطرف من قصص أبطاله .

كان قد عرف فى ((فرساى)) ــ حيث أصبحت تقيم أخته ((لور)) ــ دوقة أرملة أخنى عليها الدهر بعد أن أغدق عليها المجد فى عهد نابليون وامبراطوريته ، هى ((مدام داربانتيس)) . وكانت تناهز الأربعين من العمر ولكنها ما برحت تدل فى مشيتها بثوبها الجرار ، وتتعالى فى جلستها اذ تعتمــد بمرفقيها على مســندى كرســـيها وتلهو بتشبيك أصابعها . ويتلخص ماضيها فى زواجها من الجنرال (جونو) الذى كان محافظ باريس ومن رجال السلك السياسى الفرنسى ، ثم فى قصــة غرامها بسفير النمسا (مترنيخ) انتقاما من زوجها هذا الذى هجرها الى الاميرة (كارولين) شقيقة نابليون ، ثم فى علاقتها الخاصة بنابليون صبيا وضابطا وامبراطورا . ولم يكن المعاش الذى قررته لها الحكومة

يكفل حاجتها الى ما اعتادت فى شـــبابها من ترف ، فراحت تكتب القصص وتبيعها . ومامن شك فى أن اعجاب بلزاك الشديد بنابليون هو الذى دفعه الى الاعجاب بهذه المرأة الذابلة . وما من شك فى أنها طربت بهذا الاعجاب ، وأن قلبها قد حقق له خفقات كبيرة . ولعل الديون المتراكمة على كل منهما كانت رابطة أخرى تجمعهما وتؤلف بين نفسيهما فبات هذا الفتى يقبل عليه المجد حثيث الخطى الى جانب هذه المرأة التى يدبر عنها المجد حثيث الخطى ، يتناجيان بتذاكر نعيم الحيـــاة وبؤسها ، وأوهام الحياة وحقائقها . وقدم لها بلزاك قلبه وقلمه ، فعاونها على انشاء قصصها ، وروج لهذه القصص فى احدى المجلات الادبية ، واقترح عليها أن تكتب ذكرياتها فى ثمانية عشر مجلدا لناشر ينقدها عن كل مجلد ثلاثة آلاف فرنك . ومع ذلك فقد ماتت سنة ١٨٣٨ دون أن تسدد لصيدليها ثمن ما تعاطت من أفيون . ولم تطل عـــلاقة بلزاك بها لأنها لم تكن من الصبا والجاه بحيث تستأثر به . والحق أنه لم يحبها الا بخياله ، خيال القصاص الذى كانت تغريه اليـــدان اللتان صافحتا الامبراطور بأن يلثمهما ، وتغريه الشفتان اللتين قبلهما الامبراطور بأن يقبلهما . على أن مرور هذه الدوقة الخاطف فى حيـــاة بلزاك قد خلف فى أدبه آثارا جليلة ، فانه مـــدين لها بمعرفة أسرار حكومة الادارة وعهد نابليون ، كما هو مـــدين لمدام دى برنى بمعرفة أسرار قصر فرساى فى أواخر عهد لويس السادس عشر .

وواصل بلزاك مطاردة المجد ، فاسرف فى اللهو وأسرف فى العمل وأسرف فى الاستدانة وأسرف فى ابرام العقود مع الناشرين . وفى سنة ١٨٣١ حاولت أمه أن تزوجه لكى يستقر ويستريح من حياته المائجة ، ولكنها لم توفق . رشحت له أولا «اليونور دى ترومبى» سليلة بيت من بيوت الاشراف فى باريس ، وكان أونوريه اذ ذاك يصبو الى أن يصبح نائبا فى مجلس النواب ، غير أن آل ترومبى المحافظين استاءوا من آرائه السياسية التى كانت أقرب الى الحرية والثورة فرفضوه صهرا لهم . ثم أيدته فى مشروع خطبة البارونة «كلير ديربروك» ، وهى أرملة

فتاة قدمه اليها بعض الاصدقاء ، ولولا القضية التى استبقتها طويلا فى ((نانت)) لتم زواجه بها ..

وهنا يحق لنا أن نلقى نظرة على رسائل ((مدام دى برنى)) الى ((أونوريه)) ، انها تفيض فى هذه الفترة بالقلق كلما اقترب خطر زواجه ، وتفيض بالأمل كلما ابتعد ذلك الخطر . تقول له فى ٢١ يونية سنة ١٨٣٢ : ((هاأنذى ، لكى أطرد خواطر قاسية ، أستعيد تلاوة بعض العبارات الحبيبة من رسائلك ، وأرجو أن أتخذ من قلبك قبرا لى قبل أن يئول الى امرأة سواى ...)) وفى ٢٩ يونية : ((لقداطمأنت نفسى بعض الشىء ، وخاصة لأن السيدة قد رحلت ، ليربطها القدر حيث هى ، كى تكتمل الطمأنينة ، وليكبل الشيطان جميع النساء اللواتى يتدخلن فيما ليس يعنيهن ..))

وأكبر الظن أن ((السيدة)) التى أثارت مخاوف ((مدام دى برنى)) واشفاقها لم تكن الا البارونة ديربروك . ولكن الذى لاشك فيه هو أن قصة ((المرأة المهجورة)) التى أخذ بلزاك فى كتابتها بعد بضعة أسابيع، لم تكن الا تحية خالصة لحبه الاول . ماأشبه الفتى ((جاستون)) بطل القصة ، اذ جرؤ على الدنو من ((مدام دى بوسيان)) فى صالونها ، بالفتى ((أونوريه)) حين جرؤ علىالاتصال بمدام دىبرنى فى فيلباريزيس! وانها هى بعينها ، هى التى تعيش فى عزلتها ، ومن حولها أولادها ، والى جوارها زوجها الذى لايفهمها ، هى بواقعتها الغرامية الاولى ، وانطوائها على نفسها ، واعتذارها عن حب الفتى بفارق السن بينهما، ثم باستجابتها لنداء السعادة الاخيرة فى حياتها التعسة . وبعد أن ينفق العاشقان عشر سنين فى حب صاف رفيع يعلو ـ بفضل جمالها الممتاز وبفضل شبابه الممتاز ـ على تقاليد المجتمع الصغيرة ، اذا هما فى موقف طبيعى وباطل معا بقدر ماكان موقفهما الذى ظلا عليه منذ بدء تلك القصة ، لا لأن الموت يزهد فى القضاء على الزوج الشيخ فحسب، بل لان الحياة بفسادها تدب الى الحب وتفرق الشمل . وهاهى ذى

أم جاستون تسعى الى انتشاله من ((اباحيته)) ، وتدفعه الى الفضيلة، فتزوجه فتاة ((مستقيمة)) جامدة ، سرعان مايضيق الفتى بفتورالعيش معها فيحاول أن يعود الى سعادته القديمة وغـــرامه الاول ، ولكن صاحبته تأبى وتصده بنفس الكرمة الرفيعة التى سمت بحبهما فـوق تقاليد المجتمع ، وهناك يثوب جاستون الى بيته وينتحر ..

ولم ينتحر بلزاك .. بيد أنه ، فى الوقت الذى كان يدبج فيــه هذه التحية المؤثرة لمدام دى برنى ، ويتراجع أمام قيود الزواج ،مضى يلتمس فى غرام جديد ارضاء حسه المضطرم وطموحه الوثاب ، فكانت مغامرته الاليمة مع مدام دى كاستر ..

بدأت تلك المغامرة بداية قصصية رائعة . الأديب جالس الى مكتبه ، والبريد يحمل اليه سيلا من رسائل قرائه ، فيفضها واحدة بعد واحدة ، حتى تستوقفه رســالة دقيقة موقعة باســـم انجليزى مستعار ولكنها تنم عن قلب امرأة مرهفة الشعور ، ذكية الخاطر ، كريمة المحتد . ولتوه يجيبها برسالة طويلة ، يدافع فيها عن ادبه، ويشرح لها حقيقة ماقصد اليه فى ((علم وظائف أعضــاء الزواج)) وفى ((القصص الفلسفية)) التى نشرها أخيرا ، ثم يتجه بحـديثه اتجاها عاطفيا ، فيشكر لها رسالتها العامرة بالتأثر الوجدانى الصادق ،قائلا لها أنها تخطىء اذا تمثلته فى غير صورته فانه يعيش ((معتزلا ، مغتذيا بالفكر ، غيورا على أن تفهمه النساء)) . ولم يمض وقت طويل حتى انكشف القناع ، وظهــرت من ورائه ((الماركيزة دى كاســتر)) ، تلك الشقراء الفاتنة التى مابدت فى حفلة راقصة وقد ضفرت شـــعرها الذهبى على رأسها الأنيق الا بهتت الانوار أمام حسنها الوضاء ..

دعته الى زيارتها فلبى الدعوة . وتوالت دعواتها وتوالت زياراته ونشأت بينهما صداقة عذبة ، ثم ألفة حلوة ، ثم كان الحب . وكان بلزاك يطمح الى أن تكون له هــذه المرأة ، بجمالها ، وصـــباها ، وأناقتها ، ونفوذها السياسى لاسيما وقد انفصل زوجها عنها منذ

بضع سنين على أثر علاقتها بالأمير فكتور دى مترنيخ الذى مات بعد أن خلف لها ولدا . اذن فقد كانت طليقة من قيود المجتمع ، وذلك ماشجع أديبنا على الايغال فى مغامرته .

ولكنه آثر أن يرجىء هجومه ريثما يستعد للمعركة ، وريثما يكتب قصته الفلسفية الجديدة ((لوى لامبير)) . وكان فى حاجة الى الروح والسكينة ، فرحل فى يوليه سنة ١٨٣٢ الى أنجوليم ، ونزل لدى صديقته الكريمة ((زولما كارو)) التى كانت قد عرفته بها أخته لور وكانت ((زولما كارو)) سيدة ممتازة ، مثقفة ، فاضلة ، شقية فى حياتها الزوجية ، مذعنة مع ذلك للقدر ، لاتكاد تبث شكوى قلبها المرهف من بلادة زوجها الضابط المتقاعد الا لصديق حميم كاونوريه . وكان أونوريه خير من يفهم آلامها وحزنها .. ولعله أراد فى هذه المرة أيضا أن تكون هذه المرأة أكثر من صديقة له . ما الذى دار بينهما أثناء ذلك الشهر من شهور الصيف ؟ لايستطيع أحد أن يجزم بما كان . وأكبر الظن أنها أبت عليه أن يتجاوز معها حدود الصداقة والود ، فتركها فى ٢٢ اغسطس ليلحق بصاحبته ((المركيزة دى كاستر)) فى ((ايكس ليبان)) . ومن هناك كتب اليها رسالة ملتهبة يسألها : ((لماذا أرسلتنى الى ايكس ؟ ...)) فكانت جوابها هذه الوثيقة التى تصور نفس امرأة يتنازعها الحب والاسى ، وتنهشها الغيرة والكبرياء : ((لماذا أرسلتك الى ايكس ياأونوريه ؟لان هناك فقط كان يوجد مايلزمك. انك تريد امرأة شاردة الاوضاع ، متغيرة الصور ، فاتنة الاساليب ، هى أصدق مثل للتألق والتعالى ، ثم تتمنى أن تجد داخل تلك الغلالة الحريرية الملساء نفسا رحيبة غنية . هذا لن يكون .. انك فى ((ايكس)) لانك فى حاجة الى امرأة وأنا لست بامرأة ، ولأن الحرمان من كل علاقة قلبية خالصة بجنسى قد جعلك تحب الجنس بأسره ، وأنا أرفع من أن أصطفى تحت سلطان مثل هذه الحاجة . لقد رجوت أن تؤثر على باذكاء أملى فى فردوس مجهول .. أو لم تحدس انى فخورة بأنى لم أدخله ؟ ... تقول اننى أحب اللذة ومع ذلك أقاومها ، فهل تحس

بكل مافى قولك هذا .. بل وأى جنون هذا الذى دفعك الى التفكير فى؟ انى لم أجرؤ ان أقول لك هذا كله فى محضرك ، ولم أكن من القسوة أيضا بحيث أقوله .. »

ولم يجد أونوريه فى ايكس فردوسه المفقود . فقد حلا لمدام دى كاستر أن تلهو بقلبه ، تغريه يوما ، وتصده يوما ، ولاتطفىء أمله أبدا . وقد دعته الى أن يرافقها فى رحلتها الى ايطاليا مع خالها «الدوق دى فيتزجام» ، زعيم الحزب الملكى ، فقبل دعوتها مستبشرا لعله أن يجد فى ربوع ايطاليا فردوسه المفقود . ونزلوا جنيف ،ولايكاد أحد يعلم ماالذى جرى بين بلزاك ومدام دى كاستر فى تلك المدينة ، ما الذى بتر علاقتهما فجاة فعاد هو الى باريس بينما واصلت هى سفرها الى ايطاليا . ولكن المحقق أن بلزاك آب جريحا محزونا ياكله الحقد والكمد .

أما جرحه العميق فقد وصفه فى قصة «طبيب الريف» التى انكب على انشائها فى تلك الايام وكتب على غلافها «للقلوب الجريحة الظل والسكون» . وطبيب الريف هذا رجل أصيب فى حياته العاطفية . اذ تزوجت فتاة أحلامه بسواه ، فزهد فى الحياة الدنيا ، ووقف أيامه على فعل الخير بين أهل قرية صغيرة حتى نجح فى انتشالهم من براثن الجهل والفقر والمرض .

وأما حقده المرير فقد صبه فى قصة أخرى ظهر جزء منها فىاحدى المجلات سنة ١٨٣٣ بعنوان «لاتلمس الفاس» ،وظهرت كاملة سنة ١٨٣٤ بعنوان «الدوقة دى لانجيه» . والدوقة دى لانجيه امراة متحالية ، ملكة من ملكات الصالونات فى باريس ، خلبت لب «الجنرال دى مونريفو» ولكنها ظلت تتلاعب به ، تمد له تارة نظرة اغراء وتلقى عليه تارةأخرى بسمة ازدراء ، الى أن ضاق الرجل بمكانها منه . وذات ليلة ، عقب خروجها من حفلة ساهرة ، استقلت عربتها وظنت أنها بلغت دارها ،

وماكادت تلمح أنها تصعد درجات غير درج بيتها ، حتى باغتها رجال أشداء فكمموا وجهها وقيدوا يديها وقدميها . ولم تفق الا على صوت «مونريفو» وهو يأمر رجاله بأن يحموا الحديد ليسموا جبينها كما كان يوسم المذنبون المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة . بيد أنها نظرت اليه فرأت دمعتين تنحدران على خديه ، وهناك عفا عنها . وعبثا راحت بعد ذلك تدعوه اليها ، وتلح فى دعائها ، فكتبت له رسالة أخيرة تحدد فيها ساعة ان لم يدركها قبل أن تحين فلن يعثر لها مهما نقب على أثر . وذهب فى الموعد المضروب فلم يجدها ، لان ساعته كانت تؤخر التوقيت . وبعد أن بحث عنها خمس سنين ، وجدها — أثناء الحملة الفرنسية على اسبانيا — راهبة فى دير . وعندما أعد عدته لاختطافها ، كانت قد فارقت الحياة .

هكذا تخيل بلزاك أن يؤدب «الماركيزة دى كاستر» . ولكنه حلل خلال قصته أعمق تحليل نفس المرأة اللعوب ، حيث تمتزج نزوةالغريزة وحيلة العقل ، نفس المرأة التى تريد أن ترى الى أى مدى يستطيع الرجل أن يحتمل الهوان فى سبيلها ،وتخفى تحت قناع الكبرياء حاجتها الى الخضوع ليد قوية ، وتظل تواصل حربها تلك حتى تنتصر ، فاذا نصرتها هزيمة لاتفىء عليها غير الضيق والسآمة ، واذا هى تصبح — كما يقول بلزاك — «أمة منتشية بوسوسة أغلالها» ..

على أن القدر كان يدخر لبلزاك ثأرا أروع من قصته تلك الرائعة فستشهد سويسرا فى خريف ١٨٣٣ فرحته الكبرى بلقاء «الاجنبية» ، كما شهدت فى خريف ١٨٣٢ حزنه وانكساره أمام الماركيزة الشقراء.

و «الاجنبية» قصة طويلة في حياة بلزاك ، بدأت في ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٢ ، يوم تلقى رسالتها الاولى ، وستستمر الى يوم وفاته بعد ثمانية عشر عاما . ولقد كان بريد بلزاك حافلا دائما برسائل قارئاته المعجبات ، ولكن تلك الرسالة التى وصلته على عنوان ناشره جوسلان استرعت انتباهه لطول ماقطعت من طريق ، فهى تحمل طابع

«أوديسا» ، وكاتبتها توقعها باسم «الاجنبية» . ولم يجب بلزاك على تلك الرسالة الغريبة ، فقد كانت الماركيزة الشقراء تملك قلبه اذ ذاك ، وكان منصرفا عن جميع النساء اليها وحدها ..

وفى ٧ نوفمبر جاءته رسالة ثانية من «الأجنبية» تقول فيها : « لقد اهتز قلبى وأنا أقرأ كتبك ، فانك تنصف المرأة وترفعها الى مرتبة الكرامة التى تليق بها ، وانى لمعجبة بارهاف الشعور هـذا الرائع الذى أتاح لك أن تحدس ذلك ، لابد أنك محب محبوب ... » وكان يقضي أيام نقاهته العاطفية ، عقب صدود ليلاه الشقراء ، لدى أثيرته « مدام دى برنى » الأم الرءوم التى كانت خير من يواسى هذا الطفل الكبير . ولم يكد يقرأ هذه الرسالة حتى شبت فى قلبه جذوة جديدة ، فكتب الى تلك « الأجنبية » يبثها همه ويصور لها عملـه المضنى وقلبه النقى الرقيق قائلا : « اذا تفضلت بأن تعذرى جنون قلب فتى وخيال بكر خالص ، فسأعترف لك بأنك كنت لى موضوع أعذب الأحلام ، فعلى الرغم من أعمالى قد فاجأت نفسى أكثر من مرة راكضا فى أجواز الفضاء ، محلقا فى البـــلاد المجهـــولة التى تسكنينها أنت المجهولة ... أولم تنثرى على أوقاتى عطرا ؟ أو لست مدينا لك بمكرمة من مكارم التشجيع التى تحثنا على أن نتقبــل أعمالنا الشاقة ، قطرة ماء فى الصحراء ؟ ... »

واتصل تراسلهما . وأكثرا من تبادل التحية والاعجاب والثناء . وأيقن بلزاك ، اذ أهدته صاحبته المجهولة كتاب « التشبه بالمسيح » بينما كان يكتب قصته الاصلاحية « طبيب الريف » ، أن الوشـائج التى ربطته بهذه المرأة كانت من صنع السماء ..

وما أبرع ما كان بلزاك في اثارة حب النساء له واكتساب ثقتهن به ! ها هى ذى « الأجنبيه » التى كتبت له في أول الامر : « اننى « الاجنبية » بالنسبة اليك ، وسأكون كذلك ما حييت ، فلن تعرفنى أبدا » ها هى ذى تدعوه الى لقياها في « نوشاتيل » ، وقد انقضى

ثمانية عشر شهرا على بدء تكاتبهما . وكانت هذه اللقيا زاخرة بالوعود والآمال لاديبنا الطموح ، بعيدة الاثر فى مستقبله ومصيره . رأى هناك للمرة الأولى « الأجنبية » ، البولونية ، مدام هانسكا ، « ايفلين » — حواءه المنشودة . وكانت في التاسعة والعشرين من عمرها جميلة نبيلة ، رقيقة ، قد زوجتها أسرتها للروسي الثرى الكونت هانسكى ، صاحب مقاطعة « فركونيا » في أوكرانيا ، وكان يكبرها بخمسة وعشرين عاما . ويختلف مؤرخو بلزاك في رواية ما دار بينه وبين الأجنبية في هـذه اللقيا ، فيزعم بعضهم أنها احتفت به الأيام الخمسة التى انفقها في نوشاتيل ، وأنها لم ترد له رغبة ولم ترفض له سؤلا ، وأنه عاد الى باريس مبتهجا منتشيا سعيدا ، ويرى بعضهم الآخر غير ذلك ، ومن القـائلين بالرأى الأخير الأستاذ جويون الذى يعتمد على نص رسالة بلزاك الى أخته لور عقب عودته من سويسرا ، وفيها يقول ان « الزوج الملعون لم يتركنا طوال الأيام الخمسـة ثانية واحدة » ..

واتصل تراسلهما . واشتدت عبارات الحب والشوق والوجد. وبعد أشهر ثلاثة قبيل رجوعها الى أوكرانيا ، لحق بها في جنيف ، حيث جددا عهدهما بأن يتزوجها منذ يخلو جوهما من الكونت هانسكى الذى أسلمته الشيخوخه الى المرض وعما قليل يسلمه المرض الى القبر . وكان لقاؤهما الثالث في فينا سـنة ١٨٣٥ ، والرابع في بطرسبرج سنة ١٨٤٣ بعد عامين من وفاة الزوج الكونت . ثم كثر التقاؤهما وطالت آماده ، ولكن مجموع ما أنفقاه من وقت معا حتى سنة ١٨٥٠ ، أى خلال سبعة عشر عاما ، لا يكاد يتجاوز اثنى عشر شهرا . ومن هنا كانت « الرسائل الى الاجنبية » ، هذا الديوان الضخم الذى يضم خطابات بلزاك الى مدام هانسكا ، ولا يضم للأسف خطاباتها اليه — فقد كانت حريصة على اعـدامها ، هـذا الديوان الغزير الذى لا يقل امتاعا وثروة أدبية عن ديوان رسائل

((فولتير)) في القرن الثامن عشر ، ورسائل ((فلوبير)) في القرن التاسع عشر ، و ((يوميات أندريه جيد)) في قرننا العشرين .

هل كان بلزاك صادقا في حب ((الاجنبية)) ؟ لا مكان للشك في ذلك ، فمن أول رسائله الى آخرها تتعاقب كلمات العاطفة والحنان ، وتتسلل لغة الغرام ، ولا ينقطع حديث الفؤاد المتيم . انها قوته ، وسعادته ، وأمله ، وجوهرته . وهو يحبها فرحا ، مسحورا ، هائما ، متصوفا ، عابدا . يقول لها يوما : ((ان لك خير نفس سماوية عرفتها)) ، ويوما : ((ليس في قلوب الرجال ، كما في قلبي ، حب عظيم ، عرش امامه أسجد دون ضعة)) .. ولكن الغريب في هذا الحب أنه لم يفتر طوال سبعة عشر عاما ، لم يتغير ولم يتبدل ولم يتقلب مع الأيام ، لم يتأثر ببعد المزار ولم ينل منه غياب الحبيب ، ولم ينسج عليه اختلاف النهار والليل غشاء النسيان الذى يمتد الى كل شيء . ذلك أن ((الاجنبية)) كانت ثأره للكبرياء من ازدراء الماركيزة دي كاستر . وهو لم يبالغ ولم يعد الواقع حين كتب اليها : ((انما تربطني بك جميع الروابط الانسانية ، الحب ، والصداقة ، والطموح، والجد ، والكبرياء ، والغرور والذكرى ، واللذة . واليقين . والايمان بك يامن وضعتها فوق كثير من الخلائق ..))

وقد لا يكون أيسر ولا أبسط من اتهام بلزاك بانه ظل يلهو سبعة عشر عاما بتمثيل رواية هذا الحب الطريف . وذلك فرض آثار عجب الكاتب المحلل ((بول بورجيه)) فاخذ يتأمله من ناحية ، ويتعمق عاطفة بلزاك على ضوء عبقريته من ناحية أخرى ، حتى انتهى الى أن مثل هذا الحب الثابت الذى لا ينتابه اى عارض حب ((ممكن الوقوع، ومقره في نفس الفنان العظيم ملكة الخلق التى لا تخضع للمكان والزمان بل تخترقهما اختراقا . وما هو بالحب الخيالى ، فالحب الذى يسجره الخيال هو أسرع ألوان الحب الى الخمود . انه حب واقعي ، كقصص بلزاك الواقعية ، يعتمد كما تعتمد هذه القصص

على وقائع الحياة . انه قصة بلزاك التى أنشاها لنفسه ، وحملها في نفسه ، قصة أديب شقى بيد انه وفى ، قصة رجل عزب غارق في الديون تأكله الوحشية يضنيه العمل بيد أنه يرنو الى كوكب بعيد يضيء حلكة لياليه ، ويناضل كي يتغلب على العقبات القائمة فى سبيله ، ليتزوج ذات يوم حسناء كريمة القلب حلوة العشرة ، عريقة النسب ، كبيرة الثروة . أو لم يكن له الحق وهو الذى نشر قصصه فى انحاء العالم العريض ، أن يستأثر بقصة لنفسه ، يكون وحده بطلها وجمهورها جميعا ، ولا يطلع القراء الا على المشهد الأخير منها يوم تتم فصولها وتسجل الصحف فى انباء المجتمع خبر زواجه الميمون ؟.. ومن يستطيع أن يغدق على نفسه مثل هذا الترف سوى بلزاك ؟ »

على أنه لم يبدع قصته كلها . لم يشكل غير بطله ، اما بطلته فقد كانت ، رغم ذكائها وثقافتها ، محدودة الأفق ، عاجزة عن الاستيعاب فنه وفهم عبقريته ، عاجزة عن تحقيق حلمه الكبير تحقيقا كاملا . كانت رواياته تمتعها وتعجبها ، ولكن ذوقها الأرستقراطى لم يكن يستطيب أن يكسب الرجل عيشه بقلمه وأدبه . ولذلك مضي بلزاك يصف لها جلال عمله وروعة جهوده . والحق أنه كان عنيدا جبارا ، اذا انكب على الكتابة وصل الليل بالنهار ، وأغلق نوافذ غرفته خشية أن يدخلها النور الخارجي فيشتت الأخيلة الحية التى احتبسها معه ، وانطلق يحبر الصفحة تلو الصفحة ، لا يكاد يصرفه عن عمله الا اغفاءة قصيرة ، أو وجبة خفيفة ، او قدح من القهوة المركزة يحسوه على عجل ، فاذا صب على الورق جميع ما يضطرب في اعماقه من مشاهد قصته وخلائقها واحداثها ، اذن لنفسه بأن يخلع جبته البيضاء الفضفاضة كجبة الراهب ، وأن يخرج الى المدينة والى الناس ..

لقد كان نحو سنة ١٨٣٣ ، أى حين بدأت علاقته بالأجنبية ، في اوج مجده الأدبى ، قد أتم تدريبه الفنى ، ونبغت عبقريته الخالقة ، وتلاحقت كتبه الرائعة تغزو القلوب والعقول ، فى فرنسا وحدها ،

بل فى أقطار أوربا كلها .. ورسائله فى هـذا الطور تمثله لنا منتشيا بالظفر ، خفاق القلب بالأمل ، مستعر النشاط ، متوقد القريحة ، خصب الانتاج . انها تزخر بمثل هذه العبارات : « اننى أحس بالمستقبل . فها أنا ذا بين الثلاثين والأربعين من عمرى أى فى عنفوان قوتى ، وينبغى الآن أن أكتب أجمل موضوعاتى . ــ انى أعيش في جو من الأفكار والآراء والخطط والأعمال والتطورات التى تلتحم وتغلى وتتأجج في رأسي ، خليقة بأن تدفعنى الى الجنون . ــ اننى اليوم أعى ما أكون الآن ، وما سوف أصبح غداء » ..

لقد عرف نفسه ، واجتلى عبقريته ، وتمثل ادبه الجـدير بالخلود ، ورسم من الخطوط ما يسع الحياة الانسانية بأسرها ، ويجمع عشرات القصص الى عشرات القصص تحت هذا العنـوان الرائع الغزير المعنى : «الكوميديا البشرية» .

الكوميديا البشرية

ست وتسعون قصة متباينة الألوان والأحجام والأساليب ، تضم نحو ألفى شخص من مختلف الطبقات والمهن والأعمال والأجناس ، وتمتد في المكان من المدينة بأحيائها الراقية والفقيرة إلى الريف بقراه الكبيرة والصغيرة ، وتعرض صراع الناس مع الناس ، وتفاعل الفرد مع المجتمع ، وتحلل العواطف وتتعمق النفوس وتصور الحقائـــق الخفية تحت المظاهر الخالية ، وتمخر بالقارىء خضم الحياة المضطرب المائج .. تلك هى ((الكوميديا البشرية)) التى أودعها بلزاك فلسفته وفنه وخلاصة خبرته وتفكيره ، الأثر الجليل الخالد الذى استنفد ملكات أديب عالمي .

التاجر والموظف والفلاح والطبيب والصحفى ورجل المال والقاضي والوزير ، الطفل والصبى والفتى والكهل والشيخ ، والعذراء الغريرة والعانس الحاقدة والأم الفاضلة والزوجة الشقية والمرأة اللعوب ، كل أولئك يتعاقبون على مسرح الانسانية الشاسع الارجاء ، يتبادلون الأطماع والاحن والخطوب . يفجأ بعضهم بعضا بالخيانة والغـدر ، ويضحى بعضهم لبعض بالحب والسعادة ،ونشهدهم في بيوتهم وثموارعهم ومنتدياتهم ومحال أعمالهم كأنهم جميعا في ساح قتال رهيب ، يديرون فيما بينهم حوارا مضحكا محزنا ، ولا يكف امرؤ منهم عن الكر أو الفر حتى يلفظ أنفاسه ويخلى الميدان ويسدل الكاتب على مأساته الستار الأخير .

وقد أطلق بلزاك على هذه المجموعة من القصص التى أراد أن يتعقب فيها آثام عصره عنوان ((الكوميديا البشرية)) معارضا الملحمة الشهيرة التى تعقب فيها ((دانتى)) آثام عصره ولكنه اتخذ مسرحها من الفردوس والأعراف والجحيم وسماها ((الكوميديا الالهيه)) .

وقسم بلزاك قصص مهزلته الانسانية ثلاثة أقسام : دراسات أخلاقية ، ودراسات فلسفية ، ودراسات تحليلية ، أكبرها القسم الأول الذى يتفرع الى ((مشاهد من الحياة الخاصة)) و ((مشاهد من الحياة في الأقاليم)) و ((مشاهد من الحياة الباريسية)) و ((مشاهد من الحياة السياسية)) و ((مشاهد من الحياة الريفية)) .

والحق أن هذه الأقسام ليست الا واجهة رائعة تخفى وراءها بنيانا سيىء التنظيم ، واطارا متكلفا اصطنعه الكاتب بعد لأى ليوحى للقارىء أن هناك وحدة جامعة تربط بين قصصه المختلفة . فأين التناسب بين أجزاء هذا الديوان الضخم ، والقسم الأول منه يشمل عشرات من الكتب على حين لا يشمل القسم الثالث الا كتابين اثنين ؟ وما هذا التصنيف الذى يحدد الحياة بحدود ، ثم يميز بين أشياء هى في الواقع شيء واحد يستغرق بعضه بعضا كالحياة الخاصة والحياة فى الأقاليم ، أو الحياة فى الاقاليم والحياة فى الريف ، أو الحياة الباريسية والحياة السياسية ؟ لا هو بالتصنيف الجامع ولا هو بالتصنيف المانع . والعلة فى ذلك القصور ان المنية عاجلت بلزاك قبل أن يتم عمله من ناحية ، وانه من ناحية أخرى كان قد أنشأ كثيرا من القصص ونشرها مستقلة متفرقة قبل أن تخطر له فكرة جمعها وتنسيقها تحت عنوان ((الكوميديا البشرية)) .

على أن في ((الكوميديا البشرية)) وحدة عميقه أصيلة تزرى حكمتها بالرابطة الخارجية التى يجهد فى خلقها اطار ملفق . تنبعث هذه الوحدة من مبدأ مقارنة الانسان في مجتمعه بالحيوان في مملكته ، وهو رأى طريف كان موضع جدل العلماء فى القرن التاسع عشر .

وقد جهر بلزاك في مقدمته بانه آت بما لم يستطعه ((ولترسكوت))، فهذا الكاتب الاسكتلندى قد رسم لوحات مختلفة لعصور تاريخية لا تصل بعضها ببعض صلة فنية تجعل منها اثرا واحدا ، اما هو - صاحب ((الكوميديا البشرية)) - فقد آثر الا يقتبس موضوعاته من التاريخ وعصوره الشتيتة ، بل عمد الى عصره ، فاجال بصره فى مناطقه وأقاليمه هنا وهناك ، وسجل ظواهره وبواطنه في مشاهد متسلسلة متناسقة . اذن فالكوميديا البشرية صورة مصغرة للمجتمع الانسانى يقدم فيها الكاتب للقارىء امثلة من كل نوع ومن كل فصيلة ومن كل بيئة ، ولا يقف في عمله عند العرض والوصف ، بل يمضي الى التحليل والتعليل ، يردالنتائج الى الأسباب ، ويصدر حكما اخلاقيا على الاشخاص يبين الى اى حد يتفق سلوك اولئك وهؤلاء مع المبادىء المقدرة التى ينبغى أن تدير كفة الكون . :

وثمة وحدة أخرى عميقة أصيلة أيضا ، تحكم الصلة بين اجزاء هذا البنيان المرصوص تلك هى بدعة ظهور الأبطال القدامى في القصص الجديدة . وقد طرب بلزاك حين اشرق في ذهنه ذلك الخاطر ذات صباح جميل من سنة ١٨٣٣ ، كما تروى اخته ((لور)) ، فقد دخل عليها منتشيا بابتكاره ، متهللا ، يصيح بها :

- هنئينى ! فسوف أكون رجلا عبقريا !

ومن المحقق ان هذه الفكرة لم تكن جديدة على بلزاك سنة ١٨٣٣ ، لانه استخدمها استخداما بدائيا ، دون أن يعى مبلغ خصبها، في محاولاته القصصية الاولى التى استعرضناها في الفصل الثانى من هذا الكتاب . ولكنه سيستخدمها الآن في ((الكوميديا البشرية)) استخداما جديدا ، رائعا ، بعيد الأثر . لقد فطن الى ما تبعثه في نفوس القراء من قوة الشعور بحياة القصة ، وقوة الايمان بصدق وقائعها ، عودة شخص بعينه سبق لهم أن عرفوه ، وألفوه ، وشاطروه بؤسه وسعده ، وصحبوه طوال طور من اطواره في معترك الحياة .

ان مثل هذا الشخص غنى باسمه ، غنى بخلقه ، غنى بماضيه ، يضيف الى حوادث الرواية ومعانيها ثروة غزيرة . لا يكاد يبدو ، ويلقى كلمة من كلماته ، أو يأتى بحركة من حركاته ، حتى تستيقظ ذكرياتنا ، ويشتد انتباهنا ، ويتضاعف شغفنا بمدار القصة ، اذ أننا نشترك فى تمثيلها من تلقاء أنفسنا بقدر ما نعرف من شخصية صاحبنا ومسلكه مع الناس ، ومواقفه في الأزمات ، واهدافه التى يسعى اليها دائما . وهكذا يصبح أبطال المهزلة الانسانية ملكا لنا وملكا للكاتب معا ، وتصبح حياتهم الخيالية حياة حقيقية تمتد الى أبعد من صفحات كتاب واحد والى أبعد من غلاف مجلد واحد ، وأهؤلاء الاشخاص سجل مفصل جامع ، صنفت فيه أسماؤهم بترتيب الحروف الأبجدية ، وذكرت أمام كل اسم عناوين القصص التى يظهر فيها وترجمة موجزة ، وقد قام بوضع « فهرس الكوميديا البشرية » هذا باحثان بلزاكيان هما « سرفبير وكريستوف » ليكون مرجعا لطلاب أدب بلزاك . وأعاد الاديب « فيلسيلن مارسو F. Marceau » هذا التصنيف أخيرا في صورة حديثة .

***

ولعل في عنوان « الكوميديا البشرية » ما يوحى للقارىء بأن بلزاك قد أراد أن يصور المجتمع في ديوانه بريشة الناقد . وأول ما راع بلزاك وأثار ثائرة نقده هو سلطان المال . فالمال يستطيع كل شيء . انه آفة المجتمع ، يخلق المساواة بين بنى آدم ويهدمها فى آن واحد ، يسوى بين من امتلأت به خزائنهم ويهدم المساواة منذ أن يملأ هذه الخزائن فيمنح أصحابها حقوقا وامتيازات جائرة . له هيكل فى كل شبر من الأرض ، وله كهنة وعباد . ولكن طقوسه هى الفوضى بعينها ، فهو نزق متقلب ، تجلبه المصادفة وتقصيه المصادفة ، ولا أدل على ذلك من خضوعه لسعد المقامرين ونحسهم . والجميع قد أفردوا له مكان الصدارة فتبوأها متغطرسا غاشما . هو في مخادع الأمراء ،

وامكاتب الوزراء ، و ((صالونات)) الطبقة الراقية ، كما هو على موائد متوسطي الحال ، وفي أزقة الأحياء الحقيرة ، يأمر وينهى ، فاذا أمره نافذ ونهيه مطاع واذا النفوس خاشعة لعيثه وهزله !

ها هو ذا ((دى تييه)) قد بدأ وهو موظف صغير لدى تاجر الروائح العطرية ((بيروتو)) بسرقة بعض الأوراق المالية ، فلما كشف أمره رب العمل الطيب القلب زجره ثم عفا عنه ، حقد على ولى نعمته هذا ولم يعف عنه أبدا ، ثم أصبح من أصحاب الملايين ، وتقول زوجته : ((ان اغتيال الناس على قارعة الطريق يبدو لى ضربا من الاحسان اذ قورن ببعض العمليات المالية)) ..

وها هو ذا المرابى اليهودى الرهيب ((جوبسيك)) ، بعد شباب حافل بالمغامرات والصفقات والكسب الحلال والحرام ، قد كز جسمه وجف قلبه ، وبات غير ذى عاطفة ، لا يشعر ولا يحس ، وانما يعيش لينعم بسلطان المال ويتلذذ باحتقار البشر ، فانه فيلسوف ساخر يحدثك في برود عن عبر الحياة . ويصفه بلزاك في غرفته النظيفة الساكنة ينتظر المكروبين من الخلق لكى يقرر مصائرهم كما يريد ، ثم يصف أولئك الضحايا قائلا : ((وأحيانا كان ضحاياه يكثرون من الصياح ويحتدون ، وبعد ذلك مباشرة يرين صمت شامل كما في مطبخ يذبح المرء فيه فرخا من البط)) ...

وها هو ذا ((ريجو)) مرابى القرية ، رجل طويل القامة ، أسود الجفنين ، ينافق ويتمسكن ويبدى الفقر ، على حين يحظى في بيته باشهى الطعام والشراب ، ويأكل وحده ، وتقوم على خدمته زوجه التى يعرف كيف يروعها بتقطيب حاجبيه الغليظين ، وخادمه الجميلة التى لا يستبقيها لديه أطول من ثلاث سنوات متعللا دائما فى نهاية هـــذا الأمد بانه مضطر الى طردها لوقاحتها مع سيدتها . وليته كان يكتفى بخامادته الجميلات دون نساء القرية المستضعفات ..

وها هو ذا السيد « جراندیه » ، أشد البخلاء شحا وتقتيرا ، قد أثرى من صناعة البراميل ، وأصبح عمدة بلدته ، فاستغل نفوذ منصبه في تحسين أملاكه . انك لتحس في حضرته خليطا من مشاعر الاعجاب والتقدير والرهبة ، فقد كانت خليقته مزاجا من طبائع النمر والثعبان ، اذ يعرف أين يكمن لفريسته وكيف يتربص لها ويواجهها طويلا ثم ينقض عليها فاغرا كيسه ولا يتركها حتى يتخمه بالنقود ، فاذا فرغ من فعلته نام نوم الأفعى التى تصطنع السكون والجمود فى انتظار الفريسة الجديدة . ويوقن أهل قريته أن له مخبأ زاخرا بالدنانير الذهبية يقضي فيه كلما أوى اليه تلك اللذة التى تملك نفس البخيل حين ينظر ويطيل النظر الى كومة ضخمة من الذهب البراق، تلك اللذة التى خلع ادمانها على عينه لحظ الرجل الشهوانى ، النهم، المتكتم ، الذى يختلس النظر اختلاسا ، ويأكل بمقلتيه ...

والجميع يجرون وراء المال ويتعلقون بأسبابه — واشهر الوصوليين في الكوميديا البشرية هو الفتى « راستنياك » الذى نشأ في أسرة متوسطة الحال ، ونزح الى باريس ليدرس الحقوق ، فرأى هناك زينة الحياة الدنيا ، ورأى استحالة الجمع بين الشرف والترف، وعانى ضميره كثيرا قبل أن يستسلم لتأثير « فوتران » ويطبق دروسه. وليس « فوتران » استاذا ولا عالما ، وانما هو مجرم متنكر هارب من الاشغال الشاقة ، حاقد على المجتمع ، رجل ثاقب البصيرة ينفذ الى قلوب الناس كما ينفذ الى خزائنهم ، ويشبه باريس بغابة يتصارع فيها صراع الحيوان أهل الحضارة الحديثة الذين يموهون الأطماع الوحشية بطلاء من النفاق . ومبدأ فوتران في الحياة الا مبدأ في الحياة ، وقانونه ألا قانون هناك ، وانما هى ظروف ليس غير ، والرجل القوى هو الذى يوجه الظروف الى ما يشاء ...

ولو كان المال سيد جيوبنا فحسب لهان الامر ، ولكنه في الكوميديا البشرية سيد الرأى العام وسيد الأمة . في قصة «الأوهام .

الضائعة» ولاسيما في الجزء الذى يحمل عنوان « رجل من كبار رجال الأقاليم في باريس » ، يهاجم بلزاك الصحافة هجوما عنيفا . وبطل هذه القصة فتى من أقليم أنجوليم يدعى « لوسيان دى روبامبرى » أعجبت بمواهبه سيدة عريقة النسب ، فشجعته واصطحبته الى باريس ، حيث لم تلبث أن تخلت عنه وتركته وشأنه ، فاتصل بزمرة من الصحفيين ، ولمس كيف ترتعد الحكومة مما تنشره أوراقهم ، وكيف يفرق الكبار من القلم الذى يذكر فضائحهم ، وكيف يربح الكاتب الذى يبيع مقاله اليوم لزيد وغدا لعمرو وبعد غد لمن يدفع أكثر من زيد وأكثر من عمرو ! هؤلاء الصحفيون عند بلزاك هتافة مروجون أو نقاد مغرضون ، يعيشون مما يدره عليهم المدح والهجاء . لا أمانة ولا وفاء ، فالعبارات والمقالات سلع متفاوتة الاسعار ، وهى لا تساوى — مادامت تنشر اليوم وتنسي غدا — الا الدراهم القليلة أو الكثيرة التى تفيئها على كاتبها . ويلبى « لوسيان » ذلك الاغراء ، فيندفع الى محيط الصحافة ، وينجح نجاحا كبيرا ، ثم يضطرب ويترنح ، وينتهى الى البؤس . والصفحات الاخيرة من القصة تصوره لنا فى الليل ينظم — الى جوار صاحبته الممثلة « كارولى » وهى على فراش الموت — أغنية مرحة ينبغى أن يبيعها اذا أسفر الصبح ليسدد بثمنها نفقات الدفن ...

ولا يعدل سلطان المال فى المجتمع الا سلطان الحب . وقد أبدع بلزاك في تصوير الحب حين ينشأ في القلب ، وحين يشتد ، وحين يؤدى الى المآسي الانسانية . فالحب كالمال مصدر من مصادر الفوضي في المجتمع . عماده الأثرة التى تفصل الفرد عن المجتمع ، فيعتزل في دنياه الخاصة ، ويزهد في تحقيق المصلحة العامة . أرأيت الى « فيليكس » في قصة « زنبقة الوادى » كيف انصرف الى أحضان « هنريت » عن محنة وطنه — وما كان أقساها في واقعة « وترلو » وسقوط دولة نابليون ! .. والحب يؤلب الأبناء على آبائهم ، ويؤلب

الآباء على أبنائهم ، ويوغر الصدور ، ويمزق الأواصر ويفصم العرى. وقد تجمد انسانية الانسان من فرط الطمع أو من فرط البخل ، ولكن الطمع والبخل خير من الحب ، اذ يبقيان في نفس المرء على قوة تنفع المجتمع ، هي قوة الارادة التي يخدرها الغرام ويؤرجحها الهوى وتقضي عليها الشهوة ».

وكثيرة قصص بلزاك التي تعرض علينا عواقب الحب الوخيمة . حسبنا أن نذكر هنا حكاية « مدام جراسلان » . هي فتاة نقية النفس، رقيقة الشعور ، نشأت في كنف أبيها الذى بدأ حياته فقيرا ثم أثرى من تجارة الحديد والنحاس في احدى مدن الأقاليم . وكانت أجمل صورة للطهارة حتى قرأت قصة « بول وفرجيني » التي كشفت لها الدنيا ، وصورت لها الحب ، وأثرت في قلبها تأثيرا رهيبا . وحين بلغت سن الزواج زوجها أبوها بالسيد «جراسلان» ، وهو رجل في السابعة والاربعين من العمر ، بدأ حياته فقيرا أيضا ثم جاهد حتى أصبح من رجال المال . واقبلت العروس الفتاة على العلم والثقافة لكي تتبوأ المكان اللائق بها في المجتمع . وسرعان ما أمسي صالونها قبلة أعيان المدينة . ولكن زوجها سئم حياة الترف ، وهاجت بنفسه شهوة الكسب ، فجردها من زينة الحياة وعاد الى أعماله . وفي تلك السنة وقعت جريمة هائلة ، فقد وجدوا الشيخ البخيل « بنجرية » — وهو ممن يدفنون ذهبهم في القدور — صريعا بجوار جثة خادمته ، واتهم بالسرقة والقتل عامل فقير معروف بالجد والأمانة يدعى « تاشيرون». وانقسمت المدينة الى حزبين ، حزب يدافع عن تاشيرون وحزب يدينه. وبلغ من حماسة مدام جراسلان لبراءة تاشيرون أن توسلت الى النائب العام — وكان يتودد اليها — في أن يعدل عن اثبات الجريمة عليه . وبعد عشر سنين من اعدام تاشيرون تعترف مدام جراسلان « لقسيس القرية» بأن أباها عهد اليها وهو على فراش الموت بتربية هـذا الفتى الفقير ، الذى كان يتوسم فيه الذكاء والرجولة ، فاهتمت بأمره ،

وشجعته على أن يتثقف كما تثقفت هي ، فاصبح أقرب الى نفسها من زوجها الجشع المادى . وعرفت معه السعادة . ولما تركها ذلك الزوج دون مال ، عز على «تاشيرون» ان يراها معوزة ، فأراد أن ينتهب لهـا ذهب البخيل ، ولكن الرجل استيقظ وخادمته ، فقتلهما ! . أما هي فاضطرت الى أن تصمت من اجل الولد الذى كانت تنتظره ، وكان تاشيرون أباه . وهكذا دفعت الى المقصلة بالفتى الذى وكل اليها مصيره .

ومن عساه يحمى المجتمع من طغيان المال وفوضى العاطفة ؟ أهي الحكومة ؟ ان رجال السياسة في الكوميديا البشرية ، وعلى رأسهم رئيس الوزراء « دى مارسيه » ، قوم لاخلاق لهم ، يستبيحون كل شيء ويبررون الوسيلة بالغاية . وهناك قصة طريفة ينقد فيها بلزاك نظام الادارة و « الروتين » الحكومى عنوانها « الموظفون » . ومثل الحكومة كمثل الصحافة ، فالصحافة عدة هائلة يحركها كتاب صغار ممن يستثمرون المنافع والأهواء ، ومكاتب الحكومة سلطة عملاقية يحركها أقزام ضئال . جميع الموظفين يسعون الى شيء واحد ، هـو « التقرير » . فالتقرير سيدهم ومولاهم . اذا أتم « التقرير » عرض مسالة من المسائل ، فرح الموظف الذى دبجه ، واغتبط الموظف الذى تسلمه ، ورضي الموظف الذى حفظه بين الأوراق المحفوظة ، وانشرح صدر الحكومة ! وهكذا تتكدس مشروعات الاصلاح في الأضابير . هل أتاك حديث « رادوردان » رئيس القلم باحدى الوزارات ؟ كيف درس فساد الادارة وكتب مذكرة بين فيها الفائدة العامة التى تنتج من اختزال عدد الموظفين ورفع مرتباتهم وتعيين الشباب منهم فى المناصب العليا ؟ هذا المشروع النافع كان خليقا بان يصادف قبولا لدى الهيئات العليا لولا حرص واضعه على النزاهة ، وحرص زوجه على الفضيلة ، وحرص شرذمة من الطفيليات على التحالف ضـــده دفاعا عن مصـــالحهم الشخصية .

هكذا صور بلزاك المجتمع في « الكوميديا البشرية » .

لقد نظر الى الدنيا فرأى حقيقتين رئيسيتين تتشعب منهما حقائق الحياة : انعدام المساواة بين الكائنات المختلفة ، وسعي الكائنات جميعا الى الارتقاء . ففي مملكة الناس ، كما في مملكة الحيوان أو النبات ، سلم من الطبقات أدناه الاضعف وأعلاه الاقوى . وبين الاضعف والاقوى في مملكة الناس درجات متتابعة ، فصائل كثيرة وأنواع كثيرة ، كتلك الفصائل والانواع التى تمتد من دود الارض الى الفيل والأسد ، أو من العشب الطفيلي الى الدوح العظيم . وبين هذه الكائنات المتباينة صراع دائم . القوى يسحق الضعيف ، والكبير يلتهم الصغير . بيد أن قوة الاقوياء لاتكفل سيادتهم ، كما ان ضعف الضعفاء لا يحتم هلاكهم . فقد يتضافر الضعفاء ويتساندون فيهزمون القوى أحيانا ، وقد يظهر مكر الجبناء على بأس الاشداء أحيانا . ذلك أن مملكة الكائنات من أسفلها الى أعلاها مضطربة مائجة ، تتحرك حركة صعودية ، حركة الى فوق : يريد المنحط ان يرتفع، ويريد الجائع أن يشبع ، ويطمح الجميع الى مزيد من الحياة .

وربما بدت الفوارق التى تفصل بين الناس والناس أهون من الفوارق التى تفصل بين العصفور الرقيق والنسر الجارح ، وبين الحشرة الطفيلية والأسد الهصور ، ولكنها في الواقع أشد خطرا لأنها ليست فوارق مادية فحسب ، بل فوارق نفسية دقيقة ، والقوى النفسية بألوانها العديدة أبعد أثرا في تمييز الخلائق . ومن هنا كانت حركة ارتقاء الكائنات في دنيا البشر أسرع وأروع منها في دنيا الحيوان . فالانسان خليق بأن يثب في مجتمعه وثبات يعجز الحيوان عن أن يقطع مثلها عبر آلاف من الأجيال .

على أن وجود المجتمع يتدخل في هذا الصراع المتصل بين الكائنات، فيزيده تشابكا وتعقيدا . هذا الكفـــاح الذى يبدو عنيفا في دولة

الحيوان ، على حين أنه أعنف في دولة الناس ، نراه يشتد عنفا كلما ارتقى المجتمع وتحضر . في المدائن الكبيرة ، يستطيع الكائن البشرى أن يصل إلى درجات هائلة من الألم ، ومن اللذة أيضا ، غير أن اللذة اذا تجاوزت حدا معلوما أصبحت افراطا وبالتالى مصدر اختلال داخلى يؤدى الى الفناء ومن ناحية أخرى يضاعف المجتمع هذا الصراع اذ يضيف اليه صراعا جديدا ، أرحب ميدانا ، هو الصراع القائم بين الكائن الفرد الذى هو الانسان والكائن المشترك الذى هو المجتمع ه فالمجتمع بدوره يناضل للاحتفاظ بكيانه ، ويفرض على أولئك الذين يؤلفونه شرائع معينة ، ما هى الا عقبات جديدة تعترض سبيلهم الى أطماعهم ، وصدمات جديدة تضاف الى صدماتهم ، وآلام جديدة تثقل آلامهم ...

واذا كانت تلك المبادىء هى التى يراها بلزاك أساسا للحياة الطبيعية ، فما موقفه إزاء مشكلة الانسانية الكبرى ، مشكلة الفرد والمجتمع ؟ انه يحمل على المدنية والحضارة ، ولا يكاد يكتم دعوته الى الثورة والفوضى . أعظم أبطاله هم الخارجون على القانون ويمثلهم « فوتران » ، ثم الوصوليون الذين يلتوون في سيرهم مع القانون ويمثلهم « راستنياك » . والى جانب هؤلاء وهؤلاء يحتشد الضحايا، أبطال البؤس والشقاء ، « المرأة المهجورة » التى لا ينال اثمها من عطفنا عليها ، و « المرأة في الثلاثين من عمرها » بهفواتها الكبيرة التى تستدر رأفتنا ، والمرأة التى تأبى أن تنغمس في الخطيئة فيعاقبها المجتمع كما عاقب « الدوقة دى لانجيه » . ولا يجد أبطال بلزاك السعادة ولا الامتياز في خضوعهم للتقاليد وامتثالهم لنظم المجتمع ، وانما يسعد السعداء منهم ويمتاز المتازون منهم حين يقلبون الاوضاع ، ويتجاوزون الحدود ، ويقهرون الواقع ويغتصبون من المجتمع ما يريدون . وأما الضعفاء فتنوء بهم اثقالهم ، وقد يلوذون بالموت من عناء الحياة . ومن الحق أن « طبيب الريف » قد شذ عن

ســواه من أبطال الكوميديا البشرية فوجـد توازن قواه وامتيـاز شـخصيته في اتباع شرائع المجتمع وفعل الخير والسـير بالناس في ركب الحضارة ، ولكنه حالة فردية في قصص بلزاك ، فضلا عن أنه لم يصـب ما كان ينشد من سـعادة ، فقد كان قلبا جريحا أى ضحية من ضحايا الحياة .

يالها من صورة قاتمة ! لقد أثارت هـذه النظرة السوداء الى الانسانية سخط كثير من معاصرى بلزاك ، فرد عليهم باحصاء كتبه وأبطاله محـاولا أن يثبت أن كتبه التى تذيع الخير تربو على كتبه التى تذيع الشر ، وأن عدد نسائه الفاضلات يفوق عدد نسائه الآثمات ولكن مثل هذا الدفاع لا يقنع قط من قرأ « الكوميديا البشرية » ولمس ما تعرض من فساد المجتمع .

وعلى الرغم من هذا كله ، كان بلزاك أديبا متفائلا ، يعرف للانسان كرامته ، ويؤثر البناء على الهدم . ولذا تضاربت آراء النقاد في حقيقة أدبه ومعانيه ، وفي تحديد القيمة الأخلاقية للدروس التى يقدمها الى القراء . وقد ظلت فلسفة بلزاك الاجتماعية غامضة متناقضة معقدة في نظر من تناولوها من بعض أطرافها بالشرح والتأويل والتخريج ، حتى توفر الاستاذ « برنار جويون Bernard Guyon » على دراستها نحو عشرين عاما ، ونشر فيها رسالته سنة ١٩٤٧ ، فجلاها وحللها الى عناصرها ، وأرخ أطوارها في حياة بلزاك وكتبه .

لاحظ الاستاذ « جويون » تشاؤم بلزاك منذ صباه في جو الاسرة والمدرسة ، ثم في مكتب المحامى ، ثم في مشروعاته الفاشلة وعشرة صاحباته المسنات ولاحظ مع ذلك ما كان يمتاز به من طبيعة قوية ، من ارادة حازمة ، ونشاط خصب ، وجلد عظيم ، وحب للحياة على اختلاف صورها . فهو من ناحية كان ينظر الى الحياة كما هى ، ويقدر الواقع حق قدره ، ومن ناحية اخرى كان يستمد لنفسه الحية

غذاء من آراء الفلاسفة المتفائلين الذين ملئوا آخر القرن الثامن عشر في فرنسا ايمانا بوجوب تقدم الانسانية وبقدرة العقل على تحقيق هذا التقدم ، وغذاء آخر من آراء طائفة ((السان سيمونيين)) الذين حاولوا اصلاح المجتمع في أوائل القرن التاسع عشر . وحسم الاستاذ ((جويون)) مايبدو من التناقض في أدب بلزاك بأن ميز في هذا الأدب وجهتي النظر المختلفتين اللتين أنجبتاه : وجهة نظر القصاص الذى يريد أن يصور حقيقة الواقع ، ووجهة نظر المفكر الذى يريد أن يرسم مذهبه الاجتماعى والسياسي . فلا بد للاول من أن يقدم لنا لوحة صادقة لحياة الناس بما فيها من اضطراب وألم وظلم وشقاء ، لا بد له من أن يتقمص أبطاله ويندفع معهم في البحث عن السعادة والارتطام بالعقبات الاجتماعية ، ولابد أن يخلق بيننا وبينهم التجاوب الوجدانى التام فتتحمس لاطماعهم ونثور لثوراتهم ونشاطرهم عناءهم ونتاثر لمصيرهم . ولابد للثانى ، وهو الفيلسوف الحريص على حياة المجتمع وكيانه ، من أن يسعى الى حفظ التوازن بين القوى المتنوعة تسيطر على العالم ، فان في ذلك وحدة صيانة المجتمع من الفساد والفناء ، وضمان بقائه سليما مرصوصا متماسك الاركان . وما من شك فى أن الفيلسوف كالقصاص يهتم بسعادة الافراد ، اذ أن حظا من هذه السعادة لازم لصلاح أمر المجتمع ، ولكن السعادة الشخصية ليست الهدف الرئيسي للناظر الى منفعة الجماعة . وهكذا نجد في الكوميديا البشرية مقابل الثورة التى يعمد اليها الاشخاص ، سلطانا واستبدادا ونظاما عاما يكفل سلامة المجتمع ويقيه شر الانحلال .

ينبغى أن تكون السلطة اذن في يد واحدة ، يد قوية ، مطلقة النفوذ . وينبغى أن تتساند طبقات الأمة في أوضاعها الثابتة ، فلا سبيل الى المساواة بينها عند بلزاك ، لان الطبيعة قد فرضت التفاوت بين درجات مختلفة ، وكل جهد يبذل في المجتمع للقضاء على تفاوت

المراتب الطبيعى يؤدى ـ اذا نجح ـ الى فترة من الفوضي يتشكل أثناءها مجتمع جديد على أساس من فوارق جديدة . وللحاكم أن يدين ((بالمكيافيلية)) فى سياسة الدولة ، يردع التمرد بالارهـــاب وينزل الى قبول الأمر الواقع ما لم يكن بد من قبوله ، ويمكر بالرأى العـــام فى سبيل تحقيق الصالح العــام ... ما أعظم نابليون اذن وما أحكمه !

ولئن استحال خلاص الفرد خلاصا تاما من الاضرار التى يلحقها به وجود النظام الاجتماعى ، فمن المستطاع تخفيف هذه الاضرار . ضعوا حدا لامتداد المدائن وطغيانها ، وامنعوا ((كبار رجال الاقاليم)) من الهجرة الى الحاضرة حيث يخيبون ويتلفون ، وأبقوا عليهم فى أقاليمهم حيث ينتجون وينفعون البلاد . ضعوا حدا لاغراء المجون وفتنه الترف ، وأصلحوا قوانين الزواج ، وأحسنوا تربية البنات ، لتنتصر الفضيلة على الرذيلة ويستقر المجتمع . والدين فوق هذا كله وسيلة من وسائل الحكم الصالح ، لأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أى أنه دافع ايجابى يحث العباد على فعل الخير والعمل على رقى الانسانية ، ووازع سلبى يقف غلواء الاغنياء وبطش الاقوياء ، ويهدىء من نقمة الفقراء وثورة الضحايا .

ذلك هو مذهب بلزاك الاجتماعى والسياسي كما اســتخلصه الاستاذ جوبون ، وفيه نرى كيف ائتلفت الحرية والاستبداد ، وكيف تمشي التجديد مع التقليد ، وكيف اجتمع اصحاب اليسار واصحاب اليمين صفا واحدا . كان بلزاك ثائرا وكان محافظا ، كان جمهوريا وكان ملكيا ، فالب عليه جميع الاحزاب أثناء حياته ، وكسب ثناء جميع الاحزاب بعد وفاته .

بقى أن ((الكوميديا البشرية)) درس رهيب ، وأن بلزاك رجل يدس السم فى الدسم ... الى أى مدى يصح هذا الاتهام ؟ ولماذا يحمل أنصار الاخلاق الفاضلة على بلزاك ؟ ألأنه يصور قبح المجتمع

ولؤم النفوس ؟ لقد كان من الشجاعة والصراحة والجرأة بحيث قال كلمة الحق في أخلاق الناس ، وهاجم أصحاب المال وأصحاب النفوذ. وفي الحياة الخير والشر ، وبلزاك يدعو قارئه الى التفكير ويترك له حرية الاختيار . وكيف يقوم الفن السليم على غير أساس من تصوير الحقيقة ؟ لقد صور بلزاك حياة البشر من خلال عصره ، صور اضطرابها واختلاطها ، حلوها ومرها ، واصطراع القوى المختلفة في سبيل الارتقاء . انه كاتب صادق .

فن القصاص

كان بلزاك يحرص في انشاء قصته على ثلاثة أشياء : أن يتقبلها القارىء تقبل الحقيقة ، لا على أنها حكاية خيالية ، وأن يتتبعها القارىء بشوق وشغف فلا يملها ولا ينصرف عنها حتى يبلغ آخرها، وأن يعجب القارىء في جميع مراحلها بجمال البيان الخليق بالعمل الفني . أى أنه كان ينشد التصديق والتشويق والتزويق .

فالقصة أولا ، مهما اعتمدت على الواقع ، لابد أن تختلف عن الواقع . ولا كذلك التاريخ : فالمؤرخ يلاحظ الحقائق ويسجلها كما حدثت ، مضطربة مختلطة مهوشة ، على حين يتصرف القصاص في تلك الحقائق بالحذف والاضافة ، ويقتبس منها مادة رواية متصلة متسلسلة محبوكة . وهيهات ان تصادف في الحياة مثل ما تجد في الروايات . فالحياة لا تنسق الفصول ، ولا تحكم العقد ذلك الاحكام المتقن ، وانما هي تقدم لنا خطا مبتورا أو خطوطا متفرقة لمأساة من المآسي ، وعلى الكاتب أن يستعين بهذه الخطوط في رسم قصته ، وله مطلق الحرية في أن يكمل ناقصها ويقوم معوجها ، وأن يبث فيها المعنى الذى يريده . وقلما يلقى الكاتب وجها لوجه بطل قصته أو بطلتها، وانما هو يؤلف من ملامح أشخاص كثيرين صورة شخص واحد تسيطر عليه عاطفة بعينها . وهكذا كان بلزاك يستعير من الحياة عناصر قصته ، فاذا هي تبدو حقيقية ، واقعية ، ملموسة الجزئيات . وقد

استعرضنا في فصول سابقة كيف كتب قصص « الشوان » و «المرأة المهجورة » و « الدوقة دى لانجيه » .

وكان بلزاك يعمد الى التقديم بين يدى قصته بمقدمات طوال، تصف البيئة والأشخاص والنفوس والجو ، وتعرف القارىء بالبطل وأصحابه ومذهبهم في الحياة ومكانهم من المجتمع ، حتى اذا قضي بينهم بعض الوقت وألف عيشهم لم تدهشه أفكارهم وحركاتهم وأعمالهم في سياق الرواية . وللوصف في مقدمات بلزاك غاية أخرى غير التمهيد، هى الغاية التى يقصد اليها المؤرخ أو الباحث في علم الاجتماع من تسجيل ظواهر عصره وبواطنه وكتابة وثيقة خاصة عن طبقة من طبقات الناس .

ومن هنا تفيض الصفحات الأولى في قصص « الكوميديا البشرية » بكثير من التفاصيل التى يوردها الكاتب ، ويعلق عليها ويفلسفها ، مما قد تضيق معه أنفاس القارىء أحيانا .

لم يكن بلزاك اذن يقنع بتصوير الطبيعة فى لوحته ، بل كان يلذ له أن يهيمن عليها وأن يتخذ منها ممثلة في مسرحه ، وأن يسند اليها دورا هاما في القصة التى يرويها ، فكل بيئة في رأى بلزاك صورة لأهلها . وما الحى والشارع والبيت الا الاطار المنطقى للون معين من ألوان العيش ، انك تستطيع أن تعرف شخصية الرجل من نظرتك الى مسكنه ، كما تستطيع ان تستدل على نوع الحيوان من نظرتك الى جحره . وبلزاك متأثر في ذلك بعالم من علماء التاريخ الطبيعى هو « كوفييه » (Cuvier) ، وبأستاذ من أساتذة الفلسفة هو « فيكتور كوزان » Victor Cousin كان يقول في السوربون وكان بلزاك يسمع له في شغف :

« أعطني الصورة الجغرافية لبلد ما ، صف لى مياهه ورياحه

وتضاريسه ، واذكر لى حاصلاته الطبيعية ، نباته وحيوانه ، وانا زعيم بأن أصف لك سافا أهل هذا البلد » .

ولعل فى هذا الموجز لفاتحة « أوجينى » جرانديه (Eugénie Grandet) ما يغنى عن ضرب أمثلة كثيرة لا يتسع لها المقام :

« في بعض المدن بيوت من الطراز العتيق توحى اليك هذا الشعور بالوحشية الذى يخالج المرء حين يقف في الكهوف المظلمة ، والقفار الجرد ، والاطلال الخاشعة ، فلعلها قد جمعت صمت الكهوف وجدب القفار وبلى الاطلال . ولشدة هدوء الحركة والحياة في تلك البيوت يظن الطارىء على المدينة أنها بيوت مهجورة ، ما لم تفاجئه نظرة باردة يرسلها اليه من وراء النافذة رجل جامد يستطلع أمر هذه الخطى الغريبة التى دقت سمعه .. مدينة « سومور » بيت من تلك البيوت، على جانب طريق نظيف جاف ، قليل المارة ، كثير الالتواء ، ضيق، مظلم فى بعض مواضعه ، شديد الحر فى الصيف ، قارس البرد فى الشتاء .. صاحب هذا البيت هو السيد جرانديه .. » .

ويلى ذلك وصف للسيد جرانديه ، بطل البخل فى « الكوميديا البشرية » .

***

ويرى بلزاك أن الدور تشكل النفوس ، فاذا استبدل امرؤ بمنزل منزلا أخطأ الاستقرار فى الحياة ، ودب اليه الاضطراب والانحلال . وهذا ما أصاب « أوجوستين جيوم » ، تلك التى نشأت فى دكان أبيها العتيق المتواضع ، حيث الجد والأمانة والكسب القليل والادخار الكثير ، تلك التى شبت فى المتجر الساكن القاتم « وتفتحت كزهرة البنفسج فى أعماق غابة » ، بعيدا عن عواصف العاطفة ، ثم أعجب بجمالها فتى رسام عريق النسب يدعى «تيودور دى سوميرفيو»

فتزوجته بالرغم من نصح والديها المحافظين على التقاليد ، وسرعان ما استحكم سوء التفاهم بينها وبين زوجها ، فقد كانت تنكر عيش الفنانين ونزقهم وجنونهم ، لأنها لم تعرف بين جدران الدكان العتيق وفي ظل أسرتها المتواضعة سوى الاناة والعيش الرتيب وتدوين الارقام في الدفاتر ...

ان للاشياء الخارجية والظواهر المادية قيمة كبيرة في أدب بلزاك ، فهي تؤثر على الخلائق ، وتحدث الأحداث ، وتستتبع المآسي ، كانها كائنات حية مفكرة نشيطة . وفي رسم صور أبطاله ، يحمل بلزاك ملامح الوجه ، وحركات البدن ، وخصائص الزي ونوع الزينة ولون البشرة أو شكل الشعر ، تلك القيمة الرمزية الغزيرة الايحاء ، فان كل صغيرة من هذه الأشياء وثيقة خطيرة تحدد ذكاء المرء ودرجة ذكائه وطبقته الاجتماعية .. ويستطيع الذين قرءوا احدى قصص « الكوميديا البشرية » أن يفهموا ماذا يعني بلزاك بالتفاصيل التي يحشدها في أية قصة جديدة عليهم ، ويستطيعون أن يستنبطوا ما يربط الاشخاص والبيئة من وشائج ، ويستطيعون أن يؤولوا كل شيء كما يؤوله الكاتب ، ويتوقعوا أن تجرى القصة على النحو الذى تجرى عليه أمامهم في آخر الأمر .

ولكي يصب بلزاك الحقيقة صبا في قصته التي استعار عناصرها من الواقع ومهد لها بمقدمة قوية ، كان ينطلق في دنياه فيتقمص نفوس أبطاله ، ويفكر بعقولهم ، وينطق بألسنتهم . وقد لاحظنا كيف تدرب على صياغة في محاولاته الأولى : ففي « وارثة بيراج » يتبادل الاشخاص كلاما كالهراء أجوف المعاني لا يدل على شيء ، ولكنهم في « أرجو » و « فان كلور » يعبرون في أحاديثهم عن عواطفهم ومشاعرهم تعبيرا يفيد سياق القصة ، ثم تكتمل روعة الحوار في الروايات التالية حيث تلقى الكلمات نورا ساطعا على نفوس المتحدثين ، وعلى المواقف والأزمات ، وتعرض الأحداث ، وتعرض

المثلين فى لباقة ورشاقة ويسر . لقد انتهى بلزاك الى اتقان صناعة الحوار كما يتقنها الكاتب المسرحى : أولا تذكرنا ألفاظ السيد « جرانديه » بألفاظ « البخيل » في مسرحية موليير الشهيرة ؟ انه يجلس الى المائدة ذات يوم فيرى زوجته متعبة ، شاحبة الوجه ، فيقول لها :

ـ كلى ... انك مصفرة الوجه بعض الشيء ولكنى احب الأصفر ...

وفي رواية «طبيب الريف Le médecin de campagne» يفرد فصلا بأكمله لقصة معركة من معارك نابليون يرويها جندى عجوز لجماعة من الفلاحين يسمرون فى الليل ، ولن تستطيع أن تشك وأنت تقرأ تلك اللغة الشعبية في أنك تصغى لحديث رجل ساذج طيب من عامة الشعب ، لقد برع بلزاك فى اختيار الألفاظ الأصيلة الصادقة ، وحذق تلقينها لممثلى رواياته : فعلى شفتى كل منهم عبارات تنم عن مهنته وخلقه وثقافته وبيئته ، وما صفحات الحوار فى « الكوميديا البشرية » الا صورة صوتية بليغة للمجتمع الفرنسى في ذلك العصر ، كتلك الصور الاجتماعية التمثيلية التى ينقلها لنا المذياع اليوم .

***

وكان بلزاك ـ قبل قارئه ـ يؤمن بحقيقة القصة التى يرويها ، ويحيا مع أبطالها حياة أعمق من حياته مع الناس . كان يخلق أبطاله ، ويربيهم كما يربى الوالد أبناءه ، ويهتم بهم ، ويتتبع مصيرهم ، ويشاطرهم سعادتهم وشقاءهم ، ولا يفارقهم قط . ويتناقل مؤرخو بلزاك هذه النادرة : زعموا أنه لقى أديبا من الأدباء المعروفين بعد وفاة قريب له عزيز عليه ، فواساه بلزاك بكلمة عزاء مبتذلة ، ثم قال له :

- والآن دعنا من هذا ، ولندخل الى جد الأمور : من الذى سيتزوج أوجينى جرانديه ؟ ...

وكيف يخطر للقارىء بعد هذا كله أنه يقرأ أدبا خياليا ؟ ان قصة بلزاك بين يديه قطعة من صميم الحياة والواقع ، الا أن هـذا الكاتب الذى يتدخل فى كل شىء ، ويفرض تعليقه وفلسفته علينـا فرضا ، كثيرا ما يثقل علينا ويرهقنا ويثير فينا الضجر . وأكبر الظن أن بلزاك كان يدرك رذيلته تلك ، فحاول أن يستأثر برضا القارىء وشغفه طوال القصة ، واحتال على ذلك بمختلف وسائل التشويق .

وأول وسائل التشويق اختيار الموضوع ، وبلزاك خبير بالموضوعات المثيرة الجذابة التى تأسر لب الجمهور طالما حاكى القصـص المثيرة والروايات البوليسية فى شبابه ! ولئن خلت ((الكوميديا البشرية)) من السراديب الخفية ، والغرف المظلمـة ، والابواب السرية التى تعمر بها روايات المغامرات الشعبية ، لقد حتفظ بلزاك فى أروع قصصه بالمواقف القديمة المأثورة ، مع تغيير فى الدرجة لا فى الطبيعة : هنا ، بدلا من جنايات القتل والاغتصاب والاختطاف على قارعـة الطريق أو وراء الأدغال ، يروى القصاص جرائم القتل والاغتصاب والاختلاس التى سردها الأب ((مونديفير)) من فوق منبره ، هـذه الجرائم المشروعة ، التى تروح ضحيتها كل يوم نفوس بشرية بريئـة ، ولا يشهر فيها السفاحون الخناجر ولا يدس فيها الخونة السم ، فلا يريقوا الدماء ولا يزهقوا الارواح عنوة ، وانما هم يستخدمون العواطف والأحقاد والأطماع ونصوص القانون ، ويظلون كراما فى عرف المجتمع . هنا ، وفاة غير طبيعية ، فضيحة مجهولة ، سعادة مريرة ، وثروة كدسها الكسب الحرام ، وظلم لا ترفعه شرائع الناس . انها ((مشاهد من الحياة الخاصة)) : مآس مستترة ، تكتمها العائلة ولا يتحدث امرؤ عنها ، ولكن الراوى يفطن اليها بعينه الثاقبـة ، وبصيرته الواعية ، ويكشف عنها لنا فى فصـول قصصـه . لقـد

استحال ((القرصان أرجو)) الى ((فوتران)) في ((الكوميديا البشرية))
هذا الجبار العنيد الخارج على القانون ، الذى يعيش متنكرا في باريس ، ويناصب المجتمع العداء ، ويصول ويجول دون أن تهتدى اليه الشرطة ، واستحال من ناحية أخرى الى أمثال ((دى تيبيه)) أولئك الذين لا يخضعون للقانون ، ومع ذلك لا تتعقبهم العدالة ، لأنهم يزودون فى الخفاء ، ويتصيدون الفريسة الضعيفة ، ويظهرون بمظاهر الشرف ، ويعرفون كيف يضبطون أعصابهم دائما . وهل أشد من هذه الموضوعات اغراء للقارىء بالتطلع ؟

على أن بلزاك كان يحذر عيوب ((القصص السود)) ويحرص على تجنبها ، فليست القصة الشائعة هى القصة المعقدة ، ان للبساطة سحرا عميقا يروق النفوس ويستهوى الأفئدة ، وبالبساطة كان بلزاك يجتذب قراءه فى أغلب الأحيان . من تسكوين أوجينى جرانديه ؟ انها فتاة حالة فى قرار بلدة صغيرة تهيم بابن عمها الذى لا يلبث حتى يهجرها وينأى عنها .. تلك هى القصة ، ولكن بلزاك استطاع أن يجعل منها أثرا فنيا خصبا غزيرا ، فقد عالج فيها مسائل كثيرة : عالج التاريخ والنظام الاجتماعى ، اذ اتخذ من السيد جرانديه — حين اشترى فى أول أمره أراضى الكروم بمدينة سومور — ممثلا للشعب الذى انتقلت اليه أملاك الكنيسة عقب الثورة الفرنسية ، وعالج بعض مشكلات الأخلاق : مشكلة الزوجة المسكينة التى يستبعدها زوجها فى الطبقة الاجتماعية الوسطى ، ومشكلة تربية البنت ، ومشكلة الشباب الذين يواجهون الحياة فتجرفهم الأطماع الى حيث تغلظ قلوبهم وينكرون عهود الحب ، ومشكلة المال والدور الرهيب الذى يؤديه فى الحضارة الحديثة ، وعالج فوق هذا كله مسائل نفسانية : فحلل عاطفة الأبوة وعاطفة البخل ، وحلل عاطفة الحب فى نفس عذراء حيية تقية تعيش بعيدا عن العاصمة ولا تعرف غير المثل العليا ، وبذلك أصبحت القصة اليسيرة الساذجة قصة جميلة فاتنة من أبدع كتب الأدب الانسانى .

ولم يكن بلزاك يهمل الأحداث ، فالأحداث هي أول ما يبحث عنه قارىء القصة ، وقارىء القصة يقبل عليهـا اشـــباعا لغريزة الاستطلاع قبل كل شيء . وكان بلزاك يجيد تقديم الأحداث لقارئه بالقدر الذي يثير تشوقه ولهفته دائما ، يلقى اليـه من المعلومات بما يكفيه لتفهم سير الأمور ، ويدخر المفاجآت للوقت المنـــاسب . ويظل القارىء شديد التطلع الى الصفحة التالية من الكتاب ، شديد الرغبة في الوقوف على تطور الأزمة ، حتى تنتهي القصة ، وتنطوى صفحاتها جميعا بين يديه .

وخير مثل لتشويق القارىء بأسلوب تقديم الاحداث قصـــة الأب جوريو (Le Père Goriot) التي صدرت سنة ١٨٣٤ ، وبلغ فيها بلزاك ـ كما يرى الأستاذان جويون (B. Guyon) وبارديش ـ (M. Bardèche) ـ ذروة فنه .

و « الأب جوريو » هي قصة الحب الأبوى الذي يصل الى حد الجنون ، وقصة تطور نفس طيبة من الخير الى الشر تحت ضـــغط الأطماع التي تعتمل فيها والمظالم التي تحوطها . وفي هذه القصـــة ثلاثة أبطال نميزهم بين نزلاء « بنسيون » حقير :

طالب جامعي فقير طموح يدعى « أوجين دى راســتنياك » ، ورجل يناهز الأربعين من عمره قوى البدن ، غامض الشخصـــية ، يدعى « فوتران » ، وشيخ بائس يسخر منه الجميع ، ولكنه لايفكر الا في ابنتيه وهو الأب « جوريو » . ويلقى « راستنياك » في منتديات الطبقة الراقية ابنتى « جوريو » ، الكونتسية « آنا ستازى دى رستو » والبارونة « دلفين دى نوسنجن » ، ويخبرهما ، فاذا هما تجســمان أمامه الغرور والاثرة ، هذين الحافزين اللذين يدفعـــان المجتمع بأسره نحو المتعة وحب الظهور . ويغازل « دلفين » لعلهـا أن تمهد له الطريق الى المجد ، ولكن « فوتران » يشير عليه باتبـاع الطريق الاقصر ، طريق الجريمة لا طريق الامالة ، قائلا له : «ينبغي أن تلوث يديك لكي تشبع : تلك هي أخلاق عصرنا » . بيد أن

الشرطة تلقى القبض على « فوتران » ، فليس هذا الرجل المتنكر سوى المجرم الذائع الصيت « جاك كولان » زعيم أرباب السوابق ، وهكذا يخلص « راستنياك » من تأثيره المنكر . وفى الوقت نفسه ، يبذل الأب جوريو آخر أمواله لاسعاد ابنتيه اللتين لا تمسكان عن اللهو والتبذير ، حتى اذا مات فى ضنك الفقر لم تحضر هذه ولاتلك لشهود لحظات احتضاره التى بات طوالها يناديهما ويخاطبهمـــا ويناجيهما ويباركهما ! ويشترى له « راستنياك » الكفن ، ويدفنه فى مقابر « بير لا شيز » . اذ ذاك يوقن الفتى أن الأسرة غش وغبن ، وأن الثورة بأسلوب « فوتران » أمر محال ، فيختار الكفاح ، وهو شريعة المجتمع ، وينظر الى باريس من أعلى الربوة ويتحداها ، ثم يهبط اليها . انها اذن ثلاث قصص لا قصة واحدة .

أولا : قصة الأب جوريو وابنتيه ، وهى من « مشـــاهد الحياة الخاصـــة » .

وثانيا : قصة راستنياك وعلاقته بدلفين ، وما دلفين الا احدى صور « المرأة المهجورة » فى أدب بلزاك .

وثالثا : قصة فوتران ومطاردة الشرطة له والقاء القبض عليه .

وهى قصـــة بوليسية ممتازة ، فان بلزاك يخفى عنـا شخصية فوتران ، ويتركنا مع نزلاء « البنسيون » الذين ينجسس بعضـــهم على بعض ، ويكتم كل منهم ماضيه وحاضره على الآخرين . أو ليست هذه الرواية مجموعة من الألغاز يلذ للقارىء أن يحلها ؟

***

وقد رأينا كيف اعتاد أديبنا رصد المقدمات الطوال يمهد بها لقصصه : بالرغم عما لهذه المقدمات من وظيفة هامة فى التصـــوير والتاريخ والدراسة الاجتماعية ، فانها خطأ فنى فى صياغة القصة

اذا جاوزت حدا معلوما . وقد احس بلزاك ما في تلك الصـفحات الثقيلة البطيئة من خطر ، فوفر العناء على قارئه في كثير من قصصه، ووفق الى ابتكار افتتاحيات بارعة رشيقة جذابة . ولعل الطف هذه الافتتاحيات ذلك المشهد الفكاهي الذي تبدأ به رواية «سيزار بيروتو» (César Birotteau) فنحن في مخدع الزوجين وقد انتصف الليل ، تستيقظ « مدام بيروتو » ، وتتفقد زوجها فلا تجده في مكانه من الفراش ، وتدير بينها وبين نفسها حديثـا نعرف من خلاله شخصية الزوج ، ثم يؤزها القلق فتنهض ، وتجد الرجل في ثياب الليل يذرع الدار ويقيس ابعاد الغرف ويقدر مساحة البيت، لانه أزمع أن يوسع مسـكنه ودكانه وتجـارته ، فقد اهتدى الى مشروعات الاثراء وخلبته زينة الحياة الدنيا .

والقارىء اذ يتتبع حوار الزوجين الطريف يعلم ما لم يكن يعلم من أخلاقهما وأفكارهما وحالهما ومستقبلهما ، دون مشـقة ودون جهد .

★★★

والحق أن عناصر التمهيد البلزاكي ثلاثة : الوصف ، والحوار، والعودة بالقارىء الى الوراء .

وقد استعرضنا أمثلة للوصف وللحـوار ، وبقي أن نلم بفن بلزاك في استعادة ماضي أبطاله .. هذه قصة « أسرة مزدوجـة » (Une double famille) في شارع هادىء صامت من شـوارع باريس ، تطل من شرفة منزل قاتم الجدران فتاة قد اتخـذت من التطريز وسيلة لكسب عيشها ، وتلاحظ كل يوم بين السابلة رجلا غامضا يمر في مواعيد ثابتة ، وسرعان ماتنشأ بينهما علاقة ، ويولد لهما أبناء ، وتضطرب الحياة من حولهما .. وهنا ، بعـد هذا التشويق المتصل ، يأذن بلزاك لقارئه بالنفوذ الى سر الرجل من

وراء ستار الغموض الذى أسدله عليه خلال الصفحات الأولى . وفى عبارة واحدة ، يرجع بالقارىء اثنتى عشرة سنة الى الوراء قائلا : « ولتفهم ما تنطوى عليه مقدمة هذا المشهد من عبرة ، ينبغى أن ننسى لحظة هؤلاء الأشخاص ، وننصرف الى سرد الأحداث السابقة.. فى أواخر سنة ١٨٠٦ ، كان أحد المحامين الشبان ... »

ويروى لنا نشأة الأستاذ « جرانفيل » المحامى وقصة شقائه بزواج امرأة تقية مسرفة فى التقوى تنحرف بها شدة الورع عن روح الدين ، مما دعاه الى البحث عن السعادة العائلية مع امرأة أخرى هى « كارولين كروشار » التى كانت تطل عليه من نافذة البيت القاتم الجدران فى ذلك الشارع الهادىء الصامت .

على أن تشويق القارىء أو تسليته لم تكن هم بلزاك الأكبر ، لقد كان فنانا ينشد الجمال فى صياغة قصصه فوق هذا كله ، ولذلك كان يرقى بها تارة الى آفاق الشعر العالية ، ويبث فيها تارة حماسة الملحمة البليغة ، ويبعث فيها تارة أخرى حياة المأساة المسرحية المؤثرة .

وما كان الجمهور فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر يطلب من القصاص افكارا جديدة ولا اسلوبا جميلا ، وانما كان يطلب روايات حافلة بالمغامرات الممتعة ليس غير . كانت القصة لونا من الوان الادب الرخيص ، لا يطمح قارئها ولا كاتبها الى مثل الفن الرفيع ، ولكن بلزاك انتشلها من هذا الحضيض ، وخلع عليها حلل البيان سابغة أنيقة بديعة الوشى .

وكم كان يبذل من جهد فى تجويد العبارة وانتقاء اللفظ ! ان مخطوطاته المحفوظة فى « مجموعة لوفينجول » (Lovenjoul) تشهد بدابه على تنقيح أسلوبه فى كل لحظة ، فانه يستبدل بكلمة كلمة وبجملة جملة وبفقرة فقرة ، حتى بعد ارسال نصوصه الى المطبعة .

وقيل انه كان مضطرا الى هذا التصحيح المتلاحق لأنه كان سريع الانتاج يستعجله دائنوه ، وسرعة الانتـــاج تقتضى الاهمـــال وقلة الاتقان .

والحق أن تلك شائعة سطحية علقت بصيت بلزاك ، لاتعتمـــد على أساس وطيد من التحليل الأدبى ، وقد نفاها أخيرا بعض النقاد المتحدثين المستنيرين ومن بينهم الأستاذ «جويون» الذى يؤكد أن صاحب « الكوميديا البشرية » لم يكن طيع القلم ســــلس التعبير بل كان بطبيعته يعانى كثيرا من الصعوبة والمشقة فى الكتابة .

ومهما يكن من أمر تلك الخصومة ، فالثـــابت أن بلزاك كان شديد الحرص على جمال أسلوبه ، دائم العناية بصـــقل قوالبه الفنية .

وكان فنانا فى اخراج قصصه ، يعرف كيف ينسق عناصرها وأجزاءها المختلفة بحيث تتقابل وتتوازن وتتجاوب وتترك فى نفس القارىء أروع أثر ، كان يصمم رواياته تصميم مهندس بارع ».

ونستطيع أن نستقرىء فنه هذا فى « المشاهد من الحيـــاة الخاصة » (Scenes delaviepriveé) وهى مجموعة من ست قصص نشرها في مجلدين سنة ١٨٣٠ ، عندما حذق صناعته ، واتخذ مذهبه الشخصى فى تخطيط القصة . انه يشيدها بطريقة التعارض، يقول فى قصة « عائلة مزدوجة » : « واذ ذاك يؤلف هذان الجزءان حكاية واحدة قد أنتجت قصتين متميزتين » : فنحن نرى صورتين لشخص واحد ، لوحتين متقابلتين لحياته ، حياته فى بيته الشرعى وحياته فى بيت المطرزة « كارولين كروشار » . وكذلك فى رواية « محل الخردوات Lamaisondu Chat-gui-pelote) ـ نرى صورتين متضادتين لحياة « أوجستين جيوم » : حياتها الوديعة الهادئة أول

الأمر في دكان أبيها المتواضع ، ثم حياتها المريرة المضطربة بعد زواجها الرسام تيودور دى سوميرفيو .

★★★

ولا يبدو كلف بلزاك بالتعارض فى رسمه الخطوط الرئيسية لبناء القصة فحسب ، بل يمتد الى صفحات الوصف وتقديم أشخاص الرواية ، فهو يقسمهم فى أغلب الأحيان فريقين ، كاسرتى «جراسان» « وكروشو » اللتين تتنافسان فى قصة « أوجينى جرانديه » على يد الوارثة أوجينى ، أو كطائفتى الصحفيين اللتين يتردد لوسيان بطل « الأوهام الضائعة » (Illu sionsperdues) فى الانضمام الى واحدة منهما : فهناك عصابة المرتزقة الذين يبتذلون فنهم ويبيعون ضمائرهم ، وهناك جماعة الأدباء الشرفاء الذين يؤمنـــون بالقيم العليا . ويدافعون عنها وعلى رأسهم دارتيز .

ان البيئات والخلاق والمواقف تتعارض دائما في كل كتاب من كتب « الكوميديا البشرية » ، تربطهما جميعا وجوه شبه ووجـوه اختلاف عامة وخاصة ، وتشحنها فى كل حين قوى هائلة من التجاذب والتنافر كأنها الأقطاب المغناطيسية . وينتظم هـــذا الازدواج فى وحدة فنية رصينة ، كتلك التى نجتليها واضحة ناصعة فى « قصة مجد وانحطاط سيزار بيروتو » . وهى قصة زاخرة بتباين الاشخاص والأجواء ، ولكن التعارض لا يهزك بالتأثر مثل ما يهزك فى الصفحات الأخيرة حين يظهر تاجر الروائح العطرية « هذا البطل من أبطـــال الأمانة فى التجارة » ، وقد استرد شرفه بعد افلاسه ، فيعود الى داره الأولى ، ويدخل قاعة الاستقبال التى طرد منها طرد الهوان قبل بضع سنين ، ويرى الجدران وعليها الطلاء نفسه ، ويلقى وجها لوجه النساء أنفسهن وكبار المدعوين الى حفلته الراقصة ، أنفسهم، ويسمع الألحان الموسيقية نفسها ، فتسرى فى أعماقه دهشة رهيبة، ويأخذه طرب عظيم ويموت من فرط السعادة ، ان لرجع الصدى

وقعا ساحرا فى ختام القصة ، وما أروع هذا التعارض الذى يرفع من كل ناحية وفى كل اتجاه عباب الخضم البشرى السحيق الأغوار! أو لم يكن بلزاك رساما ممتازا فى توزيع الأضواء والظلال على صقال لوحاته الخالدة ؟

هو القصاص الذى جمع صدق الحقيقة وسحر التشـــويق وجمال الفن فى القصة ، فخلقها خلقا جديدا ، وجعل منها لـونا أدبيا شريف المنزلة جليل القدر : فقبل بلزاك كان الأدباء ينظرون الى القصاص نظرة ازدراء ، ولم يبلغ أمثال « شاتوبريان » مكانتهم الرفيعة فى فرنسا بفضل ما نشروا من روايات ، بل بفضل مصنفاتهم الجامعة أو دواوين شعرهم ، أو اشتراكهم فى الحياة السياسية . أما بلزاك فقد سما بالقصة ، اذ اتخذ مادتها من التاريخ والاجتماع والفلسفة ، وعالجها بأسلوب القصيدة والملحمة والمسرحية ، ونشر فيها الوان الرسام وأنغام الموسيقى ، وأنفق حياته بين أبطالها يخلقهم ويحركهم ويخاطبهم خطاب الحى للاحياء . ويزعم بعض الرواة أنــه كان يهذى فى سكرات الموت ، حين أعيت علته نطس الأطباء له قائلا لمن كانوا حول فراشه :

ــ استدعوا لى « بيانشون » !

وبيانشون هذا طبيب من أبطال « الكوميــديا البشرية » وان صدقت تلك الرواية المؤثرة فانها الدليل الرائع على الوحدة بين أدب بلزاك وحياته ».

ختام القصة

من العاطفة المضطرمة والأطماع الخالبة والكفاح العنيف والآلام الانسانية المختلفة ، نسج بلزاك قصصه ، ومن هذا كله نسج القدر حياة بلزاك فكان أبرع منه قصاصا • وقد ألممنا بأهم مراحل حياة بلزاك ، تلك القصة الكبيرة الرائعة التى ألفها القدر ، وبقى لنا الآن أن نشهد فصلها الأخير ، وهو أكبر مشاهدها واروعها .

ذات صباح من شهر يناير سنة ١٨٤٢ ، تلقى بلزاك رسالة مجللة بالسواد ، تخبره فيها مدام هانسكا بوفاة زوجها ، فوقع النبأ عليه بردا وسلاما ــ وبلغ من تأثره اذ رأى العقبة الكأداء فى سبيل سعادته تنهار وتزول ، أن ظل مذهولا أربعا وعشرين ساعة ، محتبسا فى غرفته لا يريد أن يخاطبه أحد • واستشعر ما فى بسمة القدر له من خفض الحياة ولين العيش ، فاضرب عن العمل المرهق ، وراح ينام أربع عشرة ساعة يوميا وهو الذى لم يكن يرقد اطول من خمس ساعات أو ست • أضرب عن الجهاد ، وكمن فى قلبه يستروح الهناء الذى ينتظره بعد بضعة أشهر ، فقد اعتادت ملكات التخيل والخلق فى نفسه ان تجعل من مستقبله حاضره ومن أفكاره وقائعه •••

على ان تلك الرسالة المجللة بالسواد ، تلك الرسالة الحزينة المبهمة ؟ كانت تنم عن فتور كاتبتها وتحفظها . ذلك أن مدام هانسكا لم تكن تستطيع أن تقترن ببلزاك الا بعد أن تصفى تركتها

وتزوج ابنتها « آنا » . وقد اقنعت صاحب ((الكوميـديا البشرية بوجاهة عذريها هذين عندما مضى الى لقائها فى بطرسبرج ، فى يوليو سنة ١٨٤٣ . ويقول بلزاك فى وصف ذلك اللقاء : لم أكن قد رأيتها منذ فيينا ، ووجدتها فى مثل ما كانت عليه من الجمال والشباب. ومع ذلك فقد انقضت على هذا العهد سبع سنوات ، أنفقتها فى أرضها فى وسط صحارى القمح كما انفقتها فى باريس وسط صحراء البشر الشاسعة .

واستقبلتنى استقبال صديق حميم ، فعددت الساعات التى لم أقطعها بالقرب منها ساعات تعسة ، باردة حزينة ..))

ولكن « الأجنبية » كانت ترجىء الزواج لعلل اخرى لم تكن تبوح بها لعاشقها المتيم الصبور . ما من شك فى انها كانت ترحب بأن تهجر ديار أوكرانيا الموحشة الى مغانى باريس الفاتنة ، غير أنها كانت اقل ترحيبا بان تشاطر بلزاك همومه وأن تنضم الى اسرة عرفت من صغائرها الشىء الكثير . وما من شك فى ان اهلها الذين اغتفروا لها على مضض صلتها من بعيد ببلزاك كانوا يابون عليها ، اعتزازا بأرومتهم ومجدهم التليد ، هوان الاقتران بهذا الكاتب الشعبى ، وقد أضعفت معارضتهم العنيدة من حبها ، لانها كانت قد جاوزت طور الحب الملح الذى يزيده العذل والتحريم شدة والحاحا .

وادرك بلزاك ذلك المنطق ، فلم يجادل ولم يسأل شيئا ، وانما مضى يضرب حصارا مكينا حول هذا القلب المنيع . أتاها من كل ناحية . ولم تكن رسائله أزخر عاطفة وابرع رميا منها فى ذلك الحين . هاهو ذا يحاول ان يغرى كبرياءها . ومن لا تتمنى ان تصبح زوجة بلزاك ؟ ((أربعة رجال ستكون لهم حياة عظيمة : نابليون وكوفييه واوكونيل واريد ان أكون الرابع .

وهاهو ذا يحاول ان يغرى غرورها . فقد كتبت أقصوصة ثم أحرقتها ، ولكنها روت له موضوعها فاقتبس منه قصـــة ((مودست منيون » وانباها بأن « أقصوصتك قد صارت رواية فخمة » . ولكن تهليله وتكبيره وثناءه العاطر على عبقرية مدام هانسكا لم تحدث الأثر المنشود . فما مودست منيون الا فتاة جامحة الخيال تراسل الشاعر كاناليس ، على غير علم من والديها ، فيؤنبها أبوها قائلا : « اشرحى لى يابنيتى كيف تستطيع فتاة تحبها أمها حبا جما أن تقدم على اثم الكتابة لرجل مجهول دون أن تستشيرها ؟ كيف لم يقل لك عقلك ولم تقل لك نفســك ـ اذا أعوزك الحياء ـ ان مثل هـذا التصرف معناه الارتماء فى احضان رجل ؟ « وقد استاءت مدام هانسكا من هذه السطور التى تندد برسالتها الأولى إلى بلزاك ، واضطر بلزاك الى ان يؤكد لها حسن نواياه . وحين اهدى اليها قصة « البير سافاروس » اجابته بازدراء : ((انه كتاب رجل)) : بيد أنه روى فيه حكايتهما وكان يقدر أنها سوف تتأثر اذ تقرأ فى اعترافات بطله : « ان جهاد الناس والاشياء الذى صببت فيه بلا انقطاع قوتى وطاقتى ، والذى طالما استنفدت فيه حوافز الرغبة ، قد اضنى نفسى . فعلى الرغم من مظاهر الفتوة والصحة ، أحس أننى مهدم . وكـل يوم يمر يذهب بقطعة من كيان حياتى . لم يعد لى من القوة والقدرة ما يطيق غـير السعادة . وهذا بعينه ما أثار امتعاض مدام هانسكا ، فهى بعبارتها « انه كتاب رجل » تريد أن تقول : انه كتاب رجل أثر كجميع الرجال لا يفكر الا فى نفسه .

وهاهو ذا يحاول أن يغريها بجمال الاحسان الذى ستؤديه له يوم تتزوجه . فسوف يصبح منذ ذلك اليوم جديرا بأن يتبوأ كرسيا من كراسى مجلس النواب ، وكرسيا من كراسى الأكاديمية الفرنسية . فكم بات يحلم بأن يكون له فى باريس « صالون » عظيم يتردد عليه أقطاب السياسة ، وتدير فيه الحديث أميرته هذه العريقة النسب ؛

وكم بات يحلم بأن يسدد ديونه وأن يصيب من الجاه مالا تتردد معه الأكاديمية في ان تفسح له مكانا بين اعضائها الخالدين ! لقد وضع آمال العمر بين يديها .وارسل يهيب بها : « اكسبي قضيتك اذن تكسبي قضيتي ! » ذلك انها كانت تتابع قضية تتعلق بممتلكاتها . ولما كان بلزاك خبيرا بشئون القضاء وتسجيل العقود ، فهو يسخر معارفه القانونية لخدمتها ، لعل في منقبته هذه منفعة لهـا ، رابطة جديدة توثق الروابط القديمة التي ما برحت عاجزة عن توحيد حياتهما .

وها هو ذا يحاول ان يغريها بشبابه الناضر ، فيروى لها كيف ادهشت حيويته زوجة المثال « دافيد » حين جلس ازاءه لينحت له صورة ، قالت :

ـ انك في الثلاثين .

فاجابها ـ بل في الرابعة والأربعين !

فوثبت من فوق أريكتها تسأله ـ بأية قدرة ؟

وأجابها ـ آه ذلك سرى لا أبوح به !

ولكنه يبوح به لمدام هانسكا ، فان شبابه ينبع من قلبه ، « وهذا السر هو حب حواء ... انى أصغر سنى بخمس عشرة سنة ، مثلك تماما يا عزيزتى » اما هى فتجيبه بأن قلبها قد مات ، فيحتج عليها ويستنكر ما تقول . بيد انه لا يخفى عنها ما ينتابه من الحزن والكآبة والخوف من ان يبلغ السـعادة لا غبا منهك القوى لا يسـتطيع أن يستمتع بالهناء الموعود ....

هكذا راح يضرب على أوتار فؤادها ، وترا من بعد وتر ، يداعب تارة كبرياءها وتارة غرورها وتارة كرمها وتارة منفعتها ، راجيا ان يقضى على مقاومة هـذه المرأة التى استسلمت له يوما رغم الحوائل الاجتماعية ، والآن تستسلم له دون التحفظ السابق الا أنها ترجىء

دائما اعلان حبها رسميا • وكاد يتحقق رجاؤه سنة ١٨٤٦ ، فقد كانت مدام هانسكا تنتظر ولدا ، ولم يكن بد من عقد زواجها ، ولكن حادثا ألم بها بدد ذلك الرجاء . ويبالغ « لوفانجول » في كتابه « رواية حب » فيرد الى تلك المغامرة ما أصاب قلب بلزاك من علة أخذت تشتد على مر الأيام •••

على أن بلزاك لم يستيئس ، فيا طالما واجه الفشل في شبابه بالعزيمة والجلد . لقد أعد كل شيء . اشترى دارا فاخرة بشارع فورتونيه (الذى أطلق عليه فيما بعد اسم بلزاك) ، وأثثها بأثمن أثاث ، وجعل منا عشا جميلا ومتحفا انيقا • وزاره في هذه الدار الشاعر « تيوفيل جوتييه » ، وابدى عجبه من هذا الترف الذى يتناقض مع ما كان يدعى بلزاك من فقر :

ـ اذن لقد انفتحت لك كنوز « ألف ليلة وليلة » • والناس على حق في أن يحسبوك من أصحاب الملايين •

ـ انني الآن افقر مما كنت طيلة حياتي • وليس لى شيء من هذا • فقد جهزت البيت لصديق منتظر • وما أنا الا حارس الدار وبوابها •

يا للأمل الوهاج لا تنطفىء جذوته ! ويا للهمة الجبارة لا ينال منها رهق العمل وجنون السرف وهول النضال ! لنلق نظرة أخيرة على أدب بلزاك • ان انتاجه في هذه الحقبة يروعنا بغزارته وتدفقه وتنوعه • دع « المجلة الباريسية » التى اصدرها سنة ١٨٤٠ ، واحتجبت بعد العدد الثالث ـ وان كانت أعدادها هذه الثلاثة مجلدات قيمة دبجها بلزاك وحده وضمنها مقالات هامة في النقد الادبى ـ والتفت الى ذلك الفن الجديد الذى أقبل عليه عام ١٨٣٨ ، فن المسرح والتمثيل :

من الغريب أنه بدأ بمحاولات فاشلة كمحاولاته القصصية الاولى،

فلا خبرته السابقة ، ولا معرفته بالخلائق والمجتمع استطاعت أن تمده بدعائم متينة يقيم عليها مسرحه . فروايته الجامحة «مدرسة البيوت» لم تمثل . وروايته الثقيلة « فوتران » قد منعت السلطات تمثيلها لأن المخرج أعار بطلها محيا الملك لويس فيليب وحركاته ، ولو قد مثلت لباءت بالفشل ، وأما روايته الثالثة «موارد كينولا» ، التى تقدم فى انشائها تقدم «القرصان أرجو» على «وارثة بيراج» ، فقد احتشد أصدقاؤه بملعب الأوديون فى الحفلة الاولى لتمثيلها والهبوا أكفهم بالتصفيق لمشاهدها ولكن زئير الجمهور الساخط طغى على تلك المجاملة . ولم تكن « باميلا جيرو » خيرا من سابقاتها ، ولكن «زوجة الأب » تصيب بعض النجاح ، وعلى أثرها يتنبأ تيوفيل جوتييه لبلزاك بمستقبل زاهر فى عالم المسرح . وسرعان ما تصدق نبوءة جوتييه اذ يكتب بلزاك مسرحية « مركادية » ، ويوفق فيها لادخال الحياة الواقعية الى المسرح كما أدخلها فى القصة ، دون اخلال بقواعد الفن التمثيلى . وسوف يحاكى المحدثون شخصية «مركاديه» رجل المال الذى يخدع الجميع حتى يروح ضحية بعض ضحاياه . غير أن بلزاك لم يسمع تحيات الاعجاب بهذه الرواية الناجحة ، فقد مثلت بعد وفاته بسنة . ومن يدرى ، لو قد امتدت حياته عشر سنين أخرى ، أما كان خليقا بأن يتحف المسرح بآيات بينات تضارع روائع الكوميديا البشرية ؟

وكان فى الوقت نفسه يواصل انشاء « الكوميديا البشرية » . فنشر سنة ١٨٤٦ قصتين ، ونشر سنة ١٨٤٧ قصتين ، ونشر سنة ١٨٤٨ قصة أخيرة . أجل قصة بلزاك الأخيرة — ولم يكن قد جاوز التاسعة والأربعين من عمره ! وليست هذه القصة من أعظم ما كتب ، ولكن فيها جمالا ونبلا ورحمة تجعل منها خير خاتمة لأدبه . فقد عرضت علينا الهزلة الانسانية مشاهد الرذيلة والجريمة واللؤم ، حتى بتنا نتساءل : ما الذى عساه أن يحفظ المجتمع من الانهيار اذا

كانت تنخر فيه غرائز الشر ويتفشي في جميع أركانه الخبث والفساد. والاجابة عن هذا السؤال يقلب بلزاك اللوحة ، ويدعونا المنظر الى ظهرها ، معنونا قصته ((وراء التاريخ المعاصر)) . والحق أن المجتمع مازال قائما لم يهلك ، لأن هناك ، وراء المساوىء التى نراها ، فضائل لا نراها ، فضائل حية عاملة ، جماعة من أهل الخير تحالفوا على صنع المعروف واسداء العون والتضحية من أجل البعيدين والقريبين .

وتتلخص هذه القصة في أن فتى يدعى ((جودفروا)) مر يوما ، وقد سئم الحياة التى أصبح لا يجد لها معنى ، أمام بيت عتيق فى أحد شوارع باريس القديمة ، وطرق الباب اذ قرأ لافتة تعلن عن مسكن للايجار ، فأدخل الى حيث اجتمعت حلقة من رجال أجلاء ، على وجوههم سمات الحكمة والورع ، وتتوسطهم سيدة مسنة نبيلة هى ((مدام دى لاشانترى)) . ويعلم من أمر هذه الجماعة مما يثير اعجابه بها ورغبته في الانضمام اليها . فهؤلاء هم ((اخوان المواساة)) يحسنون الى المتألمين في الخفاء ، ولهم أطباء وأمناء في كل حى من أحياء المدينة . والجزء الأول من القصة ــ الذى يشمل وصف البيت العتيق واستيقاظ نفس ((جودفروا)) في فجر حياة كريمة والأنباء التى يروونها له ومطالعته كتاب ((التشبه بالمسيح)) ــ يخلف فينا شعور التأثر ، وشعور الاكبار لتلك القلوب العامرة التى عرفت الآلام فغدا همها أن تخفف آلام الاشقياء . والجزء الثانى قصة مدام دى لاشانتيرى . لقد زوجت ابنتها رجلا من طبقة الأشراف فافسد حياتها، فاتخذت لها عشيقا من أبناء الشعب كان على صلة بعصابة ((الوقادين)) التى اختصت أبناء الثورة الفرنسية في تعذيب الأشراف وتحريقهم للاستيلاء على أموالهم . وحين تقبض السلطات على العصابة يحمل النائب العام ((بورلاك)) على تلك السيدة وابنتها حملة شعواء ، فتسجن السيدة طويلا ، وينفذ حكم الاعدام في الفتاة . أما الآن ، فقد أخنت الأيام على النائب العام بورلاك ، وأمسي أتعس البشر ،

حتى اضطر الى أن يعيش متنكرا ، حاملا اسما غير أسمه ، باذلا آخر ما ملكت يده في علاج ابنته المريضة . وتقف مدام دي لاشانترى على بؤسه فلا تمتنع عن اغاثته وانقاذ حياة ابنته ، على الرغم من أنها مازالت ترى أمام عينيها صورة وحيدتها على المقصلة . وعندما يعرف بوربلاك ، من قبيل المصادفة ، اسم المحسنة الكريمة يهرع اليهـا يستغفرها نادما فتغفر له .

وأكبر الظن أن بلزاك كتب آخر صفحات تلك القصة في جناحه الخاص من قصر فركوفنيا بأوكرانيا حيث نزل منذ سبتمبر سـنة ١٨٤٧ لدى مدام هانسكا . كانت « أنا » قد تزوجت ، بل وكانت قد قامت وزوجها برحلة جميلة اصطحبا فيها مدام هانسكا وبلزاك . وكان المقرر أن يعود الاديب المنهك الى باريس في شهر ابريل ، ولكن أعمالا ذات خطر اضطرته الى العودة في شهر يناير . ولما لم يفلح في تسديد جميع ديونه ، رجع الى أوكرانيا في سبتمبر سنة ١٨٤٩ ، بيد أنه جاء في هذه المرة كاسف البال مسلوب القوى سقيما ، وقد لقيه في أحد الميادين ـ قبيل رحيله ـ فكتور هوجو ، فلاحظ أنه كان يتنفس في عناء ويشكو من صدره . وأى بنية كانت تستطيع أن تحتمل مثل ذلك الارهاق المتصل ؟ ورسائله التى كتبها في تلك الأيام تسـجل استفحال علته ، فهو يذكر أن القهوة أصـبحت عاجزة عن تنبيهه والتأثير على أعصابه ، وأنه أصبح كثير الشرود حسير البصر ، وان الأطباء يخافون على رئتيه وعلى قلبه ..

لقد جاء في هذه المرة ليحسم أمره ، ليظفر بحوائه أو ليفقدها الى الأبد . وهذا بعض ما كتب لأخته : « لا أستطيع أن أعيش الا حيث تكون مدام ايفلين . فبفعل الزمن والصلة ومحاسنها أصبح ذلك ضروريا لوجودى . لم يعد في فرنسا مجد ولا مطمح ولا نجاح: انها هي ، بالنسبة لى ، هذا كله .. » ولكن مدام هانسكا مازالت تتعلل بانجاز قضاياها وشئون أسرتها . ويكتب بلزاك لأخته : «انت

تفهمين أن مدام هانسكا التى تعيش هنا غنية محبوبة مبجلة ، تتردد في الذهاب الى مكان لا ترى فيه غير الاضطراب والديون والنفقات.. وحماة تزجر أصغر أبنائها البالغ من العمر خمسين عاما !))

غير أن اهتمامه بتنسيق داره الفاخرة بباريس واعدادها في أجمل صورة لم يفتر ولم ينقطع . كان كبير الأمل في أنه عائد يوما الى هذه الدار ومعه عروسه البعيدة . لذلك توالت رسائله لأمه التى كلفها بمهمة الاشراف على كل شيء هناك . هل علقت الستائر؟ هل زينت المخدع ؟ هل دربت الخادم ((فرنسوا)) على طريقة تنظيف المصابيح والثريات ؟ ..

ولكن المرض لم يرحمه . أصابته نزلة شعبية حادة مع تضخم فى القلب ، وكادت تصيبه حمى مخية . وفى فبراير سنة ١٨٥٠ بات قلبه من الضعف بحيث ارتاب الجميع في امكانه السفر الى فرنسا .

كان اذن على شفا الهلاك حين كتب لأمه في ١١ مارس : ((لقد جهز كل شيء للأمر الذى تعرفينه .. وفي حالة التوفيق ، سيكون ذلك في اليوم الرابع عشر من هذا الشهر ، في الساعة السابعة صباحا)) . وفي ١٥ مارس ، كتب اليها ؟ ((أمس ، في الساعة السابعة صباحا ، ولله الحمد ، أقيم حفل زواجى وبورك فى كنيسة سانت بارب دى بردیتشیف)) . فاجابته : كم أبهجتنى رسالتك ! .. ها أنت ذا فى ملء هنائك اذ فى حوزتك أمرأتك المحبوبة حقا ، تلك التى عبدتها منذ ذلك الأمد الطويل ، ولقد استقرت سعادتك ، فانها السعادة التى ستمتد معك حياتك كلها . ياعزيزى أونوريه ، انى لسعيدة اذ تحقق زواجك قبل أن أموت)) .

وانطلق العروسان الى فرنسا . وكانت رحلة شاقة . فقد ثقلت وطأة المرض على بلزاك عند مدينة ((درسدن)) .. وكان الليل قد جن حين بلغا باريس ، وأخيرا وقفت مركبتهما في شارع فورتونيه،

أمام الدار الأنيقة . ونزلا ، وطرقا الباب ، فلم يفتح لهما أحـد ولم يجبهما أى صـوت ، على الرغم من أن النور كان ينبعث من بعض النوافذ . فاضطرا الى التماس من يكسر لهما القفل . ودخلا، فوجدا الخادم في ذهول عجيب ، ينظر اليهما نظرات بلهاء . ياالمشؤم! لقد أصيب الغلام فجأة بالجنون ، بين اللحظة التى غادرت فيها أم بلزاك البيب واللحظة التى وصل فيها العروسان ..

وسرعان ما دب الخـلاف بين الزوجين ، وسرعان ما اشـتد تشاحنهما وتنافرهما . ذلك أن « الأجنبية » ظلت أجنبية عن هذا الرجل . هى لم تتزوجه وفاء لحبه ولا اعجابا بعبقريته ، بل تزوجته رحمة به واشفاقا عليه عندما أكد لها الأطباء أنه لن يعيش أطول من بضعة أشهر . لعل آلام المرض أخرجت بلزاك عن أطواره ، ولعل عناء التمريض أخرجها هى عن أطوارها . مهما يكن من شيء ، فقد كانت الحمى تملأ جو البيت . وهكذا قضي القدر على هذا الرجل وهذه المرأة بأربعة أشهر من الندم المر على الحب الذى أنفقا ثمانية عشر عاما يظنان أنهما يتبادلانه صـافيا عذبا جميلا . وهـكذا كان أقسي ما في تلك المهزلة الانسانية مشهدها الأخير ..

وفي أوائل أغسطس زار تيوفيل جوتييه ، وقد أزمع السـفر الى ايطاليا ، صديقه بلزاك ، فلم يجده اذ كان قد خرج في عربته ليدفع المكوس عن حقائب وردت له ، وقبل أن يغادر الشاعر باريس تسلم رسالة شكر على زيارته أملاها بلزاك على زوجته ، وعبر فيها عن أمله في الشفاء ، وأضـاف اليها بخط يده هذه الكلمـات : « لا أستطيع القراءة ولا الكتابة » .

وفي ١٧ أغسطس أقبلت مدام فكتور هوجو لزيارة مدام بلزاك، ورجعت تنبيء زوجها بأن بلزاك يحتضر . وكان الشاعر الكبير يتناول عشاءه ، فارتدى من الفور حلته ، واستقل مركبة أوصلته الى شارع فورتونيه ، وطرق باب الدار . وقد وصف هوجو ليلته تلك وصفا

رائعا في كتابه « أشياء رأيتها » ، قال « كان الشارع مقفرا .
ولم يجيء أحد .. طرقت مرة أخرى ، فانفتح الباب ، وبدت لي خادم
معها شمعة وسألتني : ماذا يريد سيدي ؟ وكانت تبكي .. فذكرت
لها اسمي » . وعبر الشاعر الفناء الضيق الطويل وأدخل الى غرفة
الاستقبال التي كانت بالطابق الأسفل ، وكانت تزدان بكثير من
اللوحات النادرة وبتمثال بلزاك الذي صنعه « دافيد » . وقدمت
امرأة أخرى فقالت له : « انه يموت . لقد عادت سيدتي الى
جناحها . وانفض عنه الأطباء من أمس » . ومضت المرأة تلتمس
مسيو سورفيل (زوج أخت بلزاك) ، ولبث الشاعر مكانه ينتظر .
«كانت هناك شمعة واهنة لا تكاد تلقي ضوءا على أثاث الصالون
الفاخر .. وكان التمثال المرمري منتصبا دون جلاء في هذا الظلام
كأنه شبح الرجل الذي أشرف على الموت . وكانت رائحة جثة
تملأ البيت » . وأكد مسيو سورفيل لفكتور هوجو ما قالت له
الخادم . « فسألت أن أرى مسيو دي بلزاك . وعبرنا دهليزا ،
وصعدنا سلما مكسوا بسجاد أحمر ، مزدحما بتحف فنية .. ثم
لمحت بابا مفتوحا ، وسمعت حشرجة عالية رهيبة » . كان بلزاك في
سريره ، مسندا الى تل من الوسائد الحريرية ، قاتم الوجه ،
جاحظ العينين . وكان الى جانبي السرير خادم ، وامرأة عجوز
لا يسميها هوجو وأكبر الظن أنها كانت أم بلزاك . ويقول هوجو :
« في هذه الغرفة بعينها ــ زرته منذ شهر . كان مرحا ، مفعما بالأمل،
لا يشك في بلاله ، ويريني ضاحكا ما بجسمه من ورم .. ولما تركته،
رافقني حتى هذا السلم ، وهو يمشي في عناء ، وأهاب بزوجته :
« لا تنسي أن تعرضي على هوجو جميع لوحاتي » ..

« .. ونزلت ، حاملا في فكري ذلك الوجه الشاحب . وعند
مروري في الصالون وجدت التمثال ساكنا ، جامدا ، رفيعا ، مشعا
في غير جلاء ، فقارنت الموت بالخلود » .

وكأنى أسمع أقدام الشاعر العظيم اذ يبرح الدار يتردد وقعها على أرض الفناء الضيق الطويل في تلك الليلة الحالكة . انه أخوه في العبقرية يناى - بعد الأطباء والاهل - عما بات من هذا الرجل الخالد ملكا للفناء .

وفي ضحى الاربعاء ٢١ اغسطس سنة ١٨٥٠ شيعت جنـــازة بلزاك . كان موكبا جرارا اشترك فيه هؤلاء الذين أخلصـوا للفقيد الحب وأولئك الذين ناصبوه العداء ، هؤلاء الذين هزهم الاعجـاب بأدبه وأولئك الذين هزهم العجب من ان يموت ذلك الرجل القوى في الحادية والخمسين من عمره .

ولو لم يشيع بلزاك غير خلقه الذين أخرجهم من عقله ومن قلبه، لامتلأت بهم شوارع الحى ومسالك الجبانة ، ولكان موكبا رائعـــا تتمثل فيه جميع فئات الناس ، أصحاب كل مهنة ، وأصـــحاب كل عاطفة ، وأصحاب كل مطمع ، أصحاب كل ألم ، يتقدمهم أبطـال « الكوميديا البشرية » بوجوههم المعروفة ، كما ألفناهم ، وكما نراهم من حولنا حتى اليوم .

المراجع

هذه قائمة مختارة ، لن تحيط بآلاف الكتب والمقالات التي نشرت عن بلزاك بمختلف اللغات ، وانما تقتصر على ذكر أهم المراجع نفعا واقربها منالا للقارىء المستزيد . وأما المتخصصون فينظرون لنبحث عن مراجعهم في .

W.H. Royce : *A Balzac Bibliography*, Chicago, University of Chicago Press, 1929-1930, 2 vol.

ثم يتابعون النظر في دوريات تاريخ الأدب الفرنسي ، ولا سيما ثلاث مجلات اختصت بدراسة بلزاك هي :

١ ـ Le Courrier Balzacien (١٠ أعداد من ديسمبر ١٩٤٨ الى ديسمبر ١٩٥٠)

٢ ـ Les Etudes Balzaciennes (١٠ أعداد من مارس ١٩٥١ الى مارس ١٩٦٠)

٣ ـ L'Année Balzacienne (ابتداء من سنة ١٩٦٠)

وقد اضافت الاحتفالات بالذكرى المئوية لوفاة بلزاك ـ في سنة ١٩٥٠ ـ عدة دراسات جديدة ، ينبغي أن ننبه الى مجموعتين منها ، اصدرت احداهما هيئة اليونسكو UNESCO وضمت الأخرى المحاضرات التي القيت في السوربون (*(Le Livre du Centenaire)*

ولعل أيسر مدخل الى بلزاك هو

Ph. Bertault : *Introduction à Balzac*, Paris, Odilés, 1953.

اولا : اعمال بلزاك

La Comédie Humaine, Furne et Cie (1842-1848). J. Ducourneau réédite, à partir de 1965, les exemplaires corrigés par Balzac, en fac-similé, Paris, Bibliophiles de l'originale.

Oeuvres Complètes, Paris, Calmann-Lévy, 24 vol.

Oeuvres Complètes, éd. illustrée, texte révisé et annoté par M. Bouteron et H. Longnon, Paris, Conard, 1912-1940, 40 vol.

La Comédie Humaine, présentée par M. Bouteron, Paris, Gallimard, éd. de la Pléiade, 1935, 10 vol.
La Comédie Humaine, textes établis avec introductions et notes, par M. Allem, Paris, Classiques Garnier.

ثانيا : رسائل بلزاك

Les lettres à l'Etrangère (1833-1847), annotées par M. Bouteron, Paris, Calmann-Lévy, 4 vol. parus.
Lettres à sa famille (1809-1850), publiées par W.S. Hastings, Princeton University Press, 1934, Paris, A. Michel, 1949.
Correspondance de Balzac à Lulma Carraud, publiée par M. Bouteron, Paris, A. Colin, 1935, Gallimard, 1951
Correspondance de Balzac, recueillie, classée et annotée, par Roger Pierrot Paris, Garnier, 1er vol. paru en 1961.

ثالثا : عن حياة بلزاك

L.J. Arrigon : *Les débuts littéraires d'Honoré de Balzac*, Perrin, 1924.
André Bellessort : *Balzac et son oeuvre*, Perrin, 1924.
André Billy : *La vie de Balzac*, Flammarion, 1944, 2 vol.
G. Hanotaux et G. Vicaire : *La jeunesse de Balzac*, Ferroud. 1921.
Vicomte Spoelberch de Lovenjoul : *Un roman d'amour*, C. Lévy, 1896.
André Maurois : *Prométhie ou la vie de Balzac*, Hachette, 1965.

رابعا : دراسات فى أدب بلزاك

Alain : *Avec Balzac*, Gallimard, 1937.
F. Baldensperger : *Orientations étrangères chez H. de Balital*, Champion, 1927.
M. Bardèche : *Balzac romancier*, Plon, 1945.
A. Béguin : *Balzac visionnaire*, Skira, 1946.
Ph. Bertault : *Balzac, l'homme et l'oeuvre*, Boivin, 1946.
J. Borel : *Personnages et destins balzaciens, la création littéraire et sources anecdotiques*, Corti, 1959.

Miche Butor : *Répertoire*, éd. de Minuit, 1960.

E.R. Curtius : *Balzac*, Grasset, 1933.

J.H. Donnard : *Les réalités économiques et sociales dans la comédie humaine*, A. Colin, 1961.

Bernard Guyon : *La pensée politique et sociale de Balzac*, A. Colin, 1947.

La création littéraire chez Balzac, la genèse du médecin de Campagne, A. Colin, 1951.

F. Lotte : *Dictionnaire biographique des personnages fictifs de la comédie humaine*, Corti, 1952.

Lovenjoul : *Histoire des oeuvres de H. de Balzac*, C. Lévy, 1886.

Claude Mauriac : *Aimer Balzac*, Grasset, 1945.

Félicien Marceau: *Balzac et son monde*, Gallimard, 1955.

Gaëtan Picon : *Balzac par lui-même*, éd. du Seuil, 1956.

Georges Poulet : *La distance intérieure*, Plon, 1952.
Les métamorphoses du cercle, Plon, 1961.

G. Pradalié : *Balzac historien*, P.U.F., 1955.

Ethel Preston : *Recherches sur la technique de Balzac, le retour systématique des personnages dans la comédie humaine*, Les Presses Françaises, 1926.

A. Prioult : *Balzac avant la comédie humaine (1818-1829), Contribution à l'étude de la genèse de son oeuvre*, Courville, 1936.

ملتزم التوزيع
فى الجمهورية العربية المتحدة وجميع انحاء العالم
الشركة القومية للتوزيع

مكتبات الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

الفرع	العنوان	التليفون	المدينة
١ ــ فرع شريف	٣٦ شارع شريف	تليفون ٤٠٠١٢	القاهرة
٢ ــ فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٢	القاهرة
٣ ــ فرع ميدان عرابي	٥ ميدان عرابي	٤٦٣٨٠	القاهرة
٤ ــ فرع المبتديان	١٣ شارع محمد عز العرب	٢١١٨٧	القاهرة
٥ ــ فرع الجمهورية	٢٢ شارع الجمهورية	٩١٠٧٤٢	القاهرة
٦ ــ فرع عابدين	١٤ شارع الجمهورية	٩١٤٢٢٣	القاهرة
٧ ــ فرع الحسين	ميدان الحسين		القاهرة
٨ ــ فرع الجيزة	١ ميدان الجيزة	٨٩٨٣١١	القاهرة
٩ ــ فرع أسوان	السوق السياحي	٢٩٣٠	أسوان
١٠ ــ فرع الاسكندرية	١٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٥	الاسكندرية
١١ ــ فرع طنطا	ميدان الساعة	٢٥٩٤	طنطا
١٢ ــ فرع المنصورة	ميدان المحطة		المنصورة
١٣ ــ فرع أسيوط	شارع الجمهورية		أسيوط

مراكز ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

الوكيل	العنوان	المدينة
١ ــ مركز توزيع الجزائر	شارع بن مهيدي العربي رقم ١١ مكرر	الجزائر
٢ ــ مركز توزيع لبنان	شارع دمشق	بيروت
٣ ــ مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ ــ عبد الرحمن الكيالي	شارع ٢٩ آيار ــ دمشق	سوريا
٥ ــ الشركة العربية للتوزيع	ص.ب رقم ١٢٢٨ بيروت	لبنان
٦ ــ قاسم الرجب	مكتبة المثنى ــ بغداد	العراق
٧ ــ رجا العيسى	وكالة التوزيع ــ عمان	الأردن
٨ ــ عبد العزيز العيسى	منار التوزيع ص.ب ١٥٧١	الكويت
٩ ــ وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ ــ مكتب الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص ــ ليبيا	بنغازي
١١ ــ محمد بشير الفرجاني	٤٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ ــ الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ ــ وكالة الأهرام	شارع رشيد	عدن
١٤ ــ المكتبة الوطنية	المنامة الخليج العربي	البحرين
١٥ ــ مكتبة العروبة	ص.ب ٤١ و ٩٤	الدوحة
١٦ ــ عبد الله حسين الرستماني	المكتبة الأهلية ص.ب ٢٦١	دبي/عمان
١٧ ــ المكتبة الحديثة	ص.ب ٢٧	مسقط
١٨ ــ أحمد سعيد حلاد	المكتبة الوطنية ص.ب ٢٥	المكلا
١٩ ــ مكتبة دار القلم	شارع عبد المغني ميدان التحرير	صنعاء
٢٠ ــ على ابراهيم بشير	ص.ب ٨٢	أسمرة
٢١ ــ عبد الله قاسم الحرازي	ص.ب ١٧١٤	اديس ابابا
٢٢ ــ مكتبة ستر	ص.ب ٩٣٦	مقديشيو
٢٣ ــ عبد الله غالم محمد	ص.ب ٨١٥	ممباسا
٢٤ ــ مكتب توزيع المطبوعات العربية	لندن	لندن
٢٥ ــ المكتب التجاري الشرقي	١٠ ش كندهار ص.ب ٢٠٥	سنغافورة
٢٦ ــ مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ ــ مكتبة النيل		وادي مدني
٢٨ ــ زكي جرجس بطليوس	ص.ب رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ ــ ابراهيم عبد القيوم	مكتبة القيوم ص.ب ٤٨٠	بور سودان
٣٠ ــ عوض الله محمود ديورة	مكتبة ديورة ص.ب ٢٤	عطبرة
٣١ ــ عيسى عبد الله	المكتبة الوطنية ص ٢٤٥	وادي مدني
٣٢ ــ مصطفى صالح	ص.ب ٤٤	كوستي

أسعار البيع للجمهور فى الدول العربية

سوريا ٣٠ قرش سوري ــ لبنان ٣٠ قرش لبناني ــ الأردن ٤٠ فلس ــ العراق ٣٠ فلس ــ الكويت ٤٠ فلس ــ السودان ٣٠ مليم ــ ليبيا ٣٠ مليم ــ قطر ٥٠ درهم ــ البحرين ٥٠ فلس ــ عدن ٧٥ سنت ــ اديس أبابا ٣٠ سنت ــ أسمرة ٣٠ سنت ــ الجزائر ٥٠ سنتيم .

المكتبة الثقافية

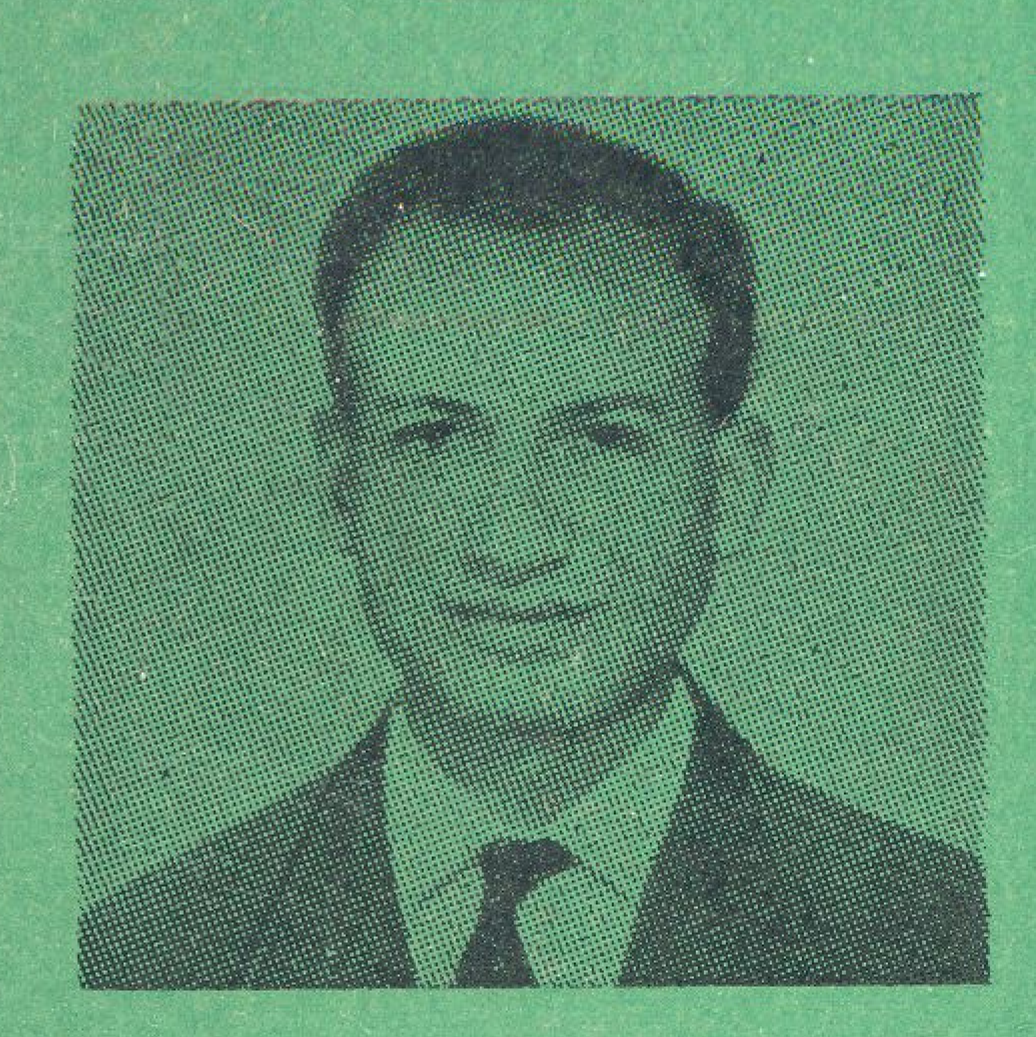
أول مجموعة من نوعها
تحقق اشتراكية الثقافة
تيسر لكل قارئ أن يقيم
في بيته مكتبة جامعة
تحوي جميع ألوان المعرفة
بأقلام أساتذة ومتخصصين

يشرف على السلسلة
الدكتور شكري محمد عياد

●

العدد القادم
ثلاثة أعراس
اودت بالخزانة الى الافلاس
بقلم
دكتور محمود احمد الحفنى

مطابع دار الكاتب العربى
فرع الصحافة



- ولد الدكتور انور لوقا سنة ١٩٢٧ فى ملوى ، بين موطنى رفاعة الطهطاوى وطه حسين ، قطبى عصر النهضة .
- نال دكتوراه الدولة فى الآداب من جامعة بلويس سنة ١٩٥٧ .
- ترجم الى الفرنسية (تخليص الابريز فى تلخيص باريز) لرفاعة، (الفتنة الكبرى) لطه حسين ، كما نقل الى العربي[...] الأدب الفر[...] والحديث .
- اهتم بالشعر [...] مقالاته « وهو [...] يعقوب صنو[...]
- ويشغل الآن [...] الفرنسى المساع[...] ويعد فى جنيف[...] السويسرى « [...] عرابى ووفيقه فى الثورة .